أروع القصص

للكاتب العبقرى والمصلح الاجتماعى تشارلز دكنز

بقلم

محمد عطية الإبراشى

خريج جامعتى اكستر ولندن

الأستاذ بدار العلوم



ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فهذه القصص صور من الحياة الإنسانية ، ومُثُل لما ينتابها من الآلام ، دعانى إلى تقديمها إلى الشعب المصرى الكريم شغف بالتقويم الخلق ، وحب للإصلاح الاجتماعى فى مصر ، وترغيب المتعلمين فى القراءة والاطلاع ، وتزويدهم بكثير من الألفاظ والعبارات والأفكار ؛ لتكون ذخيرة لهم فى حياتهم العلمية والأدبية .

وسيرى القارئ فيما كتبته عن « تشارْلِز دِكِنز » أنه كان أديباً إنكليزياً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، ينصر الضعفاء ، ويدافع عن اليتامى والفقراء ، لا يفكر إلا فى الإنسانية ، ولا يكتب إلا للإنسانية ، وقد كان لكتابته أثرٌ كبير فى إصلاح الحياة الاجتماعية بانجلترا فى القرن الماضى .

وإن ما كتبه (دِكِنز) عن حياة الطبقة الفقيرة بانجلترا لا يبعد كثيراً عما نراه أمامنا فى يومنا هذا بين المجتمع المصرى من

الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى والخُلُقى والصحّى والعِلمىّ فى كثير من نواحى الحياة .

وإنى إذ أقدم للقراء تلك الخلاصة من روايات (دِكنز) آمل أن يكون لها فى مصر والشرق من الأثر الحسن ما كان لها فى المجتمع الإنكليزى من قبل .

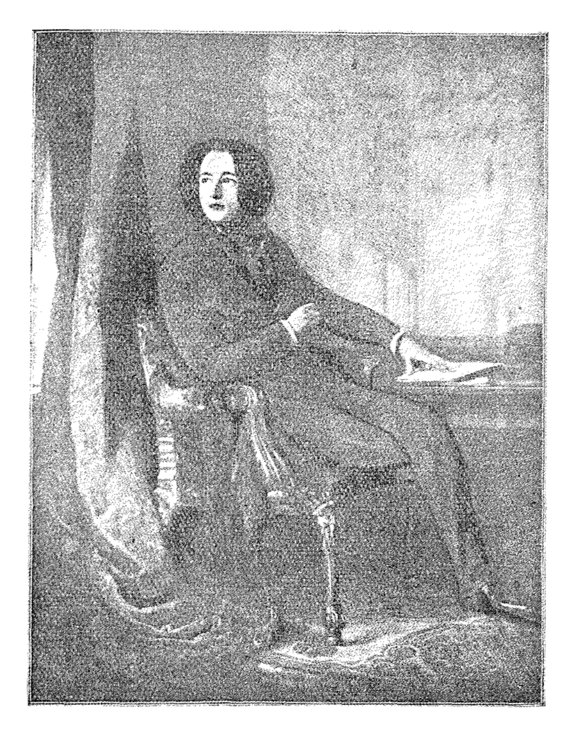
وقد روعى فى كتابتها المحافظة على الغرض الأسمى الذى من أجله وضعت هذه القصص ، وهو حب الإصلاح ، مع العناية بجزالة اللفظ ، ورصانة الأسلوب ، بحيث يجد القارئ ثروة فكريةً ، وخياليَّةً ، ولغوية ، فى كل قصة يقرؤها .

فإن وُفِّقتُ فى أداء بعض الواجب نحو مصر العزيزة والأمم الشرقية الصديقة بنشر تلك القصص الخلقية والاجتماعية فذلك ما أبغِى .

وما توفيقِى إلا باللهِ ، عليه توكّلتُ وإليه أُنيبُ .

محمد عطية الابراشى

١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٥٧
٦ من فبراير سنة ١٩٣٩



تشارلز دكنز

حياة تشارْلِزْ دِكِنز

في قرية (لا نْدپُورْت) بانجلترا كان يعيش أبواه . وقد كان الأبُ فقيرًا ذا أسرةٍ كبيرةٍ ، فاضطُرَّ إلى الاستدانةِ ، وظل سنين طويلةً يقاتِلُ الحياةَ ، والحياةُ تقاتلُه ، حتى حُكِمَ عليه بالسجنِ في (مَرْشالْسِي) لعدم الوفاء بما عليه من الديون .

نَزلَت الأمُّ إلى مُعتَرَكِ الحياة لتعملَ ؛ كي تعولَ[1] أولادَها الثمانيةَ بعد أن سُجِن زوجُها وفُصِل من وظيفتِه ؛ ففتَحتْ مدرسةً لتعليمِ البناتِ ، ولكنَّ سوءَ الحظِّ لازمَ تلك الأسرةَ ؛ فلم يُقبِلْ على تلك المدرسةِ أحدٌ ، ولم يَزُرْها سِوى المطالِبين بديونِهم . وأمامَ قسوةِ الحياةِ لم تجد الأمُّ مَفرًّا من إخراجِ ابنِها (تشارْلِزْ دِكِنْز) من المدرسةِ ، وإرسالهِ إلى المصنَعِ ليكسِبَ معيشتَه بنفسِه ، ويتمكنَ من مساعدةِ أسرتِه ، ويتقيَ شرَّ الفاقةِ والاستجداء . فودَّع المدرسةَ مُكرَهًا ؛ ليعملَ بالمصنعِ نهارًا ، وهو غلام لم يَعْدُ[2] الثانيةَ عشرةَ من عمره .

---

(١) تأتي بالقوت وتنفق عليهم (٢) لم يَعْدُ : لم يتجاوز .

كان (تشارلز) الابنَ الثانىَ من ثمانيةِ أولاد ، وقد وُلِد لسبعٍ خلَت من فبراير سنة ١٨١٢ م . وحينما كان بالمدرسةِ أظهرَ مَيلاً للدرسِ ، وحبًّا للقراءةِ ، وشغفاً كبيرًا بالقِصص . وقد كان دقيقَ الإحساسِ ، رقيقَ العواطفِ ، واسعَ الخيالِ ، حادَّ الذاكرةِ ، قوىَّ الملاحظةِ ، كثيرَ الصبرِ ، مَرِحًا طَروباً لا تكاد الابتسامةُ تُفارق شَفَتَيه . وقد مَنَحه اللهُ صوتاً عذباً ، وقُدرةً عجيبةً على محاكاةِ الأصواتِ التى يسمَعُها .

قاسَى (تشارلز دكنز) كثيرًا من البؤسِ والشقاء وهو طفلٌ ، وكان ينامُ فى البردِ كقِطةٍ مُشرَّدةٍ لا تجدُ لها مأوًى . وكثيرًا ما باتَ على الطَّوَى(١) . اختلط بصُنَّاعٍ تنقصُهم التربيةُ والتهذيبُ ؛ فى أخلاقِهم جَفافٌ ، وفى طباعِهم خُشونةٌ ، وفى مُعاملاتِهم قَسْوة . وقد أفادته تلك الأيامُ التى قضاها فى المصنعِ — فى حياتِه المستقبلة ؛ إذ كانت مَنبَعاً فياضاً لا يَغيض(٢) مَعينُه ، ولا تَنضُبُ(٣) مواردُه ، حينما أراد أن يُصورَ حياةَ الفقراءِ والمساكين واليتامى وأبناء السبيل بتلك الصورِ المحزِنةِ التى جعلَت الشعبَ الإنكليزىَّ وقتئذ يلمِسُ فى خزيٍ وخجلٍ ما يُعانيه الفقراء من فقرٍ ومَتربةٍ ، وذُلٍّ وشقاء ،

(١) الطوَى : الجوع (٢) غاضَ الماءُ : قلَّ ونضبَ

(٣) نضبَ الماء : غار فى الأرض .

ومتاعبَ وصِعابٍ؛ فى أعمالهم ومساكِنهم ومدارسِهم ومستشفياتِهم وملاجئِهم وسجونِهم ومصانعِهم .

بعد حين قيضَ[1] الله لتلك الأسرةِ من يُنقـذُ عميدَها من السجنِ، ويؤدِّى ما عليه من الدَّينِ . وبذا أتاحتْ الفرصة (لتشارلز) أن يعودَ إلى حياةِ الدرسِ والتحصيلِ ، وأُدخِلَ مدرسةً لم يَجِدْ فيها ما يُروِى ظَمأه ، ويُطفِئُ غُلّتَه[2] ، فانهارت صروحُ آمالِه ، وأخذَ يعتمدُ على نفسِه فى القراءةِ والاطلاع .

ولما بلغَ من العمر خمسَ عشرةَ سنةً اشتغَلَ كاتباً لدَى أحدِ المحامين ، ثم تعلَّمَ فنَّ الاختزالِ ؛ ليتمكنَ من أن يكتبَ لإحدَى الصحفِ ما يُلقَى فى مجلِسِ النواب من خُطَبٍ ، وما يدورُ فيه من مناقشاتٍ .

وبعد عامين اشتغل بالصحافةِ وأخذ يجوبُ القُرى ، ويختلطُ بالفلاحين ، ويكتبُ مذكراتٍ عما يشاهدُ ويَرى فى الريف ، وَيبعثُها[3] إلى الصحُف . وفى هذه الفَترةِ اكتسبَ كثيرًا من التجاربِ ، وعرَفَ كثيرًا عن الحياةِ والأخلاقِ والعاداتِ .

(١) قيَّض الله فلاناً لفلان : أى جاءه به وأتاحه له .
(٢) الغُلة : حرارة العطش . (٣) يرسلها .

اتسعتْ آمالُ (دكنز) ، وأخذ يكتبُ مقالاتٍ للصحفِ ، فتفتَّحتْ له أبوابُ المجدِ والخلودِ، واندفع إلى العملِ، يَحدوه الأملُ، ويحفِزُه[١] الرجاء. وجدَ القُراءُ لذةً في قراءة ما يكتبُ ؛ لأنه كان يَصِفُ الحياةَ ، وما في الحياةِ ، بدقةٍ كبيرةٍ، وتصويرٍ نادرٍ ، وأسلوب عذب ، فأقبَلوا على مقالاتِه ، فقدرَه أصحابُ الصحفِ حقَّ قدره ، وأخذ حَظُّه يرتفعُ، وبَدأت الحياةُ تَبْسِمُ له، وقُرِّرَله خمسةُ (جنيهاتٍ) في الأسبوعِ ، زِيدتْ إلى سبعةٍ بعد قليلٍ . وهذا قدْرٌ لم يكنْ يحلُمُ به كثيرون من كتَّابِ انجلترا وشعرائها في ذلك الوقتِ . ثمَّ جمعَ مقالاتِه في كتاب باع حقَّ طبعِه بخمسين ومائةِ (جنيه) وهو في الثانيةِ والعشرين من العمر .

أما بقيةُ حياةِ (دِكِنز) فكانت انتصاراتٍ تَتلوها انتصاراتٌ ، ترتفع باسمِه إلى عالَمِ النبوغِ والعبقريةِ والخلودِ في عالَمِ الأدَب . ألَّفَ كثيرًا من الكتب والرواياتِ المملوءةِ بالمضْحِكات والمُبكِيات، ووُفِّقَ في تمثيلِ بعضِ رواياته توفيقاً كبيرًا ، وأكثرَ التنقلَ بين المدُنِ لإلقاء المحاضراتِ ، وتمثيلِ الرواياتِ ، فأقبلَ عليه الجمهورُ

---

(١) يدفعه ويسوقه .

المتَعطِّشُ لرؤيتِه وسماعِه من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ ، ودرَسَ بيئاتٍ جديدةً ، واكتسبَ أموالاً كثيرةً ، واشترى لنفسِه البيتَ الذى كان يتمناه فى الحياةِ .

دُعِىَ (دِكِنْز) فى سنة ١٨٤٢ لزيارةِ الولاياتِ المتحدةِ وكندا ، فلبَّى الدعوةَ ، ونزَل ضيفاً مكرَّماً على الشعبِ الأمريكىِّ ، وقدَّرَت مؤلَّفاتُه التقديرَ كلَّه ، وربحَ كثيراً من المالِ ، بَيْدَ أنه كان يُنفقُ أكثرَ مما يربَحُ . وبعد أن كانت حياتُه الزوجيةُ سعيدة تَغيرتْ تلك الحياةُ ، وانقلبَتْ إلى عَناءٍ وشقاءٍ ، ففارقَ زوجَه سنة ١٨٥٨ م .

تعِبَ (دِكنز) كثيراً فى حياتِه ، وأجهدَ نفسَه فى تأليفِهِ وتمثيلِه ومحاضراتِهِ ؛ حبًّا لإرضاء الشَّعبِ . وثابرَ على عمله حتى وافاه القدَرُ المحتومُ فى التاسع من يونيه سنة ١٨٧٠ م ، وهو فى الثامنةِ والخمسين من عُمرهِ ، بعدَ أن سطّرَ اسمَه فى سجلِّ الخلود . فحزِنَت انجلترا لوفاتِه حُزنَها على (شكسبير) وقد أُودِع جُثْمانُه مع العظماء وقادةِ الرأىِ والعملِ فى (وِستمنِسْتَر آبِى) .

وإن نظرةً واحدةً إلى (دكنز) فى حياتِه تبين لنَا أنه وهبَ نفسَه وحياتَه لبلاده ، وكان من القادةِ الذين تجودُ بهم الطبيعةُ ليكونوا رسُلَ خيرٍ وإصلاحٍ لأوطانِهم . استطاع بنقدِه اللاذعِ ووصفِ ما يقاسيه الفقراء من آلامٍ — أن يُبكىَ كثيرين من قُرَّاءٍ لم يَرَوْا تلك الحياةَ ، ولم يسمعوا عنها شيئًا ، ويَلفِتَ قادةَ الأمةِ إلى تلك المخازِى التى تُودى بالشعب ، ويَدعوَهم إلى العمل على تحسينِ مُستوَى الطبقاتِ الفقيرةِ من النواحِى العلميَّةِ والْخُلقيةِ والعقليةِ والاجتماعيةِ والصحيّةِ .

لم يَستفدْ عبقرىٌ من البيئاتِ التى عاشَ فيها كما استفاد (دكنز)؛ ولعل ذلك راجعٌ إلى قوةِ ملاحظتِه ، ومثابرته ، وقدرتِه على استعادةِ الصورِ التى يراها فى المجتمَع ، وإلى خيالِه الخصبِ الذى كان يُسبغُ على الحقائق فى الحياة ثوبًا قَشيبًا جذابًا فيه شىءٌ من المبالغةِ التى تَستَسيغُها النفسُ ، وتتطلَّبها الدعوةُ إلى الإصلاح ، تلك الدعوة التى وهَبَ رُوحَه لها . استطاع أن يصوِّرَ الأمورَ العاديةَ من الشارعِ والحانوتِ والضبابِ بثروةٍ من الصورِ الخياليةِ التى تُعطى تلك الأمورَ العاديةَ حياةً ، بحيث يَشعرُ القارئُ بما يصفُه (دكنز)

كأنما يراه بعينَيْه ، ويسمعُه بأذنَيْه ، ويذوقُه بلسانِه ، ويمسُّه بيده ، ويشَمُّه بأنفِه .

وبقوةِ ما كان يشعرُ به (دكنز) استطاع أن يُخاطبَ القارئَ بقلبِه ، ويسيطرَ عليه ويمتلك حواسَّه ونفسَه ، فيُبكيه حيناً ، ويُضحِكه أحياناً ، ويَنتقلُ به من البكاء إلى الضحكِ ، ومن الضحكِ إلى البكاء . وهى صفةٌ ظاهرةٌ فى كتابتِه ، تُلازمه ملازَمةَ الظلِّ للإنسان ؛ فبينما تنسى نفسَك وتبكى وأنت تقرأُ ، ينتقلُ بك إلى صورةٍ أخرى تضحِكُك وتبعث السرور فى نفسك ، كأنه يُشفِقُ عليك من البكاء .

وإنها لمقدرةٌ عظيمةٌ تلك التى تمكِّنُ صاحبَها من أن يُضحكَ ويُبكىَ من يَشاء كما يشاء ، فى الوقت الذى يَصفُ فيه بطريقة قصَصِية عيوبَ المجتمعِ ؛ محاولاً أن يصلَ إلى العلاج الذى يَراه ويَرتضيه .

كان (دكنز) يميل إلى المبالغـةِ ليؤثِّرَ فى نفوس قارئيه ، كى يعملوا على إصلاح المجتَمعِ ، وإزالةِ ما به من شرورٍ وآثام ، ومظالمَ وآلام . وفى كل روايةٍ من رواياتهِ كان يتجهُ إلى إصلاح بعض

نواحي الحياةِ . وإن كانت انجلترا مدينةً لأحدٍ فهي مدينةٌ (لدكنز) في إصلاح حياتِها الاجتماعيةِ .

ولقد كانَ لما لاقاه (دكنز) في طفولته وغلومتهِ وشبابهِ ورجولتهِ، ولِمَا منحَه الله من ذكاءٍ نادرٍ ، وعاطفةٍ نبيلةٍ ، ولسانٍ فصيحٍ ، وخيالٍ قويٍّ، وبديهةٍ حاضرةٍ، وملاحظةٍ قويةٍ ، ومَنطقٍ سليمٍ ، ومُثابرةٍ عظيمةٍ ، ونفسٍ مَرِحة ، وميلٍ إلى الدعابَةِ — أثرٌ كبيرٌ في نجاحهِ في كتابته وتمثيلهِ ، وفي امتلاك قلوب الشعب ، والعمل على تقويم مُعوجِّه ، وإصلاح عيوبه . ولا عجَبَ إذا أحبَّه الشعبان : الإنكليزي والأمريكي .

كان (دكنز) في كتابتِهِ الكاتبَ المُبْدِعَ، والفنَّانَ القدير، والمصوِّرَ الماهر، يُصوِّرُ ما لحظَه في الحياةِ، ويَصِفُ ما أَحَسَّه، وما شعرَ به ؛ يُصوِّرُ ما رآه بعينَيهِ ، وما سمِعهُ بأُذُنيهِ ، وما لمَسَه بيدِهِ . لا يعرف الرياء ، والرياء لا يعرفه . لا يحبُّ النِّفاقَ . والنفاقُ يُنكِره .

كان في بَدء حياتِهِ فقيرًا جرَّبَ آلامَ الفقرِ، ولا يحس آلامَ الفقرِ من الجوعِ والعُرى والبردِ إلا مَن شعرَ بالفقرِ وذاقَ مرارتَه . وضع نفسَه موضعَ الفقراء، يُدافع عما لحقهم من ظُلمٍ وعدوانٍ ،

وَينتصرُ للمظلومِ ، ويشجعُ الضعيفَ ، ويُدخلُ الأملَ فى قلبِ من لا أملَ له ولا رجاء ، فأحبَّه القُراء كلَّ الحبِّ . وقد كانت مشاركتُه الجمهورَ فى شعوره سرًّا من أسرارِ نجاحِه فى حياتِه الأدبيةِ . وهو فى هـذا كشكسبير فى دراستِه نفسيةَ المجتمع ، وتقديره لشعورِهِ ، يتألم لما يؤلمه ، ويُسَرُّ لما يَسُرُّه ، ويشعرُ بما يشعر به .

كتبَ (دكنز) عن المستشفياتِ والمصَحات والملاجئِ والسجونِ والمدارسِ ، ووصفَ ما يقاسيه نُزَلاؤُها من ظلمٍ وقَسْوة ، وما يجرى فيها من فَوضَى وإهمال ، ثم عرض لأولئك المشرَّدِين الذين يَذرَعون الشوارعَ ليْلاً ، لأنهم لا يجدون مأوًى يأوُون إليه ، فوصلَ بكتابته إلى القلوب ، وحرَّك فيها عواملَ الحبِّ والرحمةِ والشفقةِ ، وأبْـكَتْ كتاباتُه آلافاً ممن لم يَخبرُوا تلك الحياةَ ولم يَعرِفوا عنها شيئاً ، ودفع بالنفوسِ إلى العمل السريعِ لإنقاذِ الإنسانيةِ المعذَّبةِ مما تُعانيه من بؤس وشقاءٍ . وقد وصل إلى ما يبغى من العدالة وحسن معاملة الفقراء والمرضَى والعجزةِ واليتامَى ، وإصلاحِ الفاسد ، وأداء الواجبِ نحو الإنسان . وبهذا أدَّى (دكنز) رسالتَه خيرَ أداءٍ ، وجازاه اللهُ خيرَ جَزاء ، ووفِّقَ إلى ما لم يُوَفَّقْ إليه المعاصرون له من الشعراء والـكتابِ بانجلترا .

القِصَّةُ الأُولى
دَاڤيد كِبَرْ فِيلد

فى قَريةِ (بْلَنْدرسْتُون) مِن مُقاطعةِ (سَافُك) عاش (دَاڤِيدْ كَبَرْ فِيلْد) ، فى منزلٍ صِحِّىٍّ تَحنُو[1] عليه بينَ جَنَباتِه والدةٌ رَءومٌ تُحبُّه كلَّ الحبِّ ، وَقَفَتْ عِنايتَها على راحتِهِ ؛ لتُعوِّضَه فُقدانَ والدِه . وكان معَهما فى هذا البيتِ خادمٌ رَحيمةُ الفؤادِ طالَما بذَلَت الودَّ لذلك الطفلِ الصغيرِ ؛ لتجعَلَ له مِن عيشِه سُرورا ومَرَحا[2] .

وكان «لداڤيدَ» عمةٌ كبيرةُ السنِّ، طويلةُ القامةِ، شديدةُ المعاملةِ، زارتِ الاسْرةَ مرةً أيامَ ولادتِه ، فتألَّمت — على غيرِ العادةِ — إذ كانت تتمنَّى أن يكون المولودُ بنتاً .

مَضَت الأيامُ ودرَج (داڤيدُ) مِن حِجرِ أمِّه وبينما الأسْرةُ الصغيرةُ فى حالٍ تَبعَثُ على الرِّضا والطُّمأْنينةِ ، و(دَاڤِيدُ) قانعٌ بحياتِه المنزليةِ ، إذ زارَها رجلٌ طويلٌ ، عابسُ الوجهِ ، أسودُ الشعرِ ، انقبضَ صدرُ « دَاڤِيدَ » لرؤيتِه ، وتملَّكَتْه الغَيرةُ عِندما شعرَ بأنه يريدُ أن يتخذَ من أمِّه زوجا .

---

(١) تعطف عليه . (٢) شدة الفرح والنشاط .

لم يُطِقْ (داڤيد) على ذلك صَبرًا ، فرأتِ الخادمُ أن تَذهبَ به لزيارةِ أخيها ، وأخذَتْ تُحبِّبُ إليه تلك الرحلةَ قائلةً : « هل لكَ فى زيارةٍ لأخى فى « يَرْمُوثَ » ؟ وهل لكَ فى رؤيةِ البحرِ المائجِ[1] ، والجوارى المنشئَاتِ فوقَ الميـــاهِ المتلاطمةِ ؟ » فما طرَقَ سمعَه هذا الحديثُ حتى انبسَطَتْ أساريرُ الغبطةِ فى وجهه، وطرِبَ أيَّما طرَبٍ ، ولـكنَّه تذكَّرَ أمَّه، ووَحدتَها الموحِشَة، وما تُعانِيه من ألَمِ الفراقِ ، فقال بلَهجةٍ تَنم عن استغرابٍ شديد : « وهل نَتركُ أمىَّ وحدَها ؟ »

فقالت له الخادمُ : « لا ، إنّ والدَتك سَوْفَ تذهبُ لتزورَ بعضَ الأصدقاء . »

فاطمأنَّ قَلبُ (داڤيدَ) ، وقَضى الليلَ فرِحاً يُفكرُ فى ملابسِ السفرِ ، ويَهتِفُ بطلائعِ الصبح . وما كادتْ تظهرُ بِشائرُه حتى هَروَلَ إلى أمِّه يُودِّعُها ، وعاطفةُ البُنوةِ قد تأجَّجتْ فى صدره ، فذَرفَت[2] عيناه بالدمع السخين ؛ حنيناً إلى مُرَبِّاه ومَهدِ صِباه . غالبَ (داڤيدُ) تلك الصعابَ ثم رِكبَ هو والخادمُ فى مَرْكبةٍ ثقيلةٍ بطيئةِ السيرِ ، فما وصلاَ إلى « يَرْمُوثَ » حتى كان التعبُ قد أضنَاه ، وأخذَ منه كلَّ مَأخذٍ ، فحَمله ابنُ أخِى الخادمِ

---

(١) المائج : المضطرب .   (٢) سالت بالدمع .

على ظهره ، وأوصلَه إلى المنزلِ ، فارتاحتْ نفسُه ، وسُرَّ عند ما وجَدَ به طفلة ناهزَتْ(١) سنه أو كادَت ، اتخذَ منها صديقةَ لَعِبٍ ومَرَح ، يُدَاعِبُها(٢) وتُداعِبُه . ولم تَمْضِ به الأيامُ إلا قليلاً فى مُقامِه حتى علِمَ أن « مستر بيجُوتِى » — وهو أخو الخادم — رجلٌ مُحسِنٌ يُربِّى فى بيتِهِ أطفالاً يتامى رَغْمَ ما يُعانيه من فقرٍ مُدقع(٣) ، وضَنْكٍ(٤) شديد ؛ فهو يكدُّ(٥) ويَتعب طولَ نهارِهِ ليحصُلَ على قوتٍ لهؤلاء . وَثَبَتَ فِى نفسِ دَاڤِيدَ أن هـذا الرجلَ الـكريمَ يَستحِقُّ الثَّناءَ ونَظرةَ الإِكبارِ .

سَعِدَ (دَاڤِيدُ) بتلك الرِّحلةِ الميمونةِ ، ونَعِمَ بجوارِ الفَتاةِ الصغيرةِ (إملِى) ، وكَمْ كان جميلاً أن تَفيضَ نفسُ كلٍّ منهما بالمودَّةِ والصفاء فى ظِلِّ الطفولةِ البريئـةِ الناعمةِ ؛ فقد كانت أحاديثُهما لا تجاوزُ هذا الميدانَ الرَّحبَ(٦) ؛ (فداڤيدُ) يَصِفُ لها النعيمَ فى بيتِهِ السعيدِ ، و (إملِى) تقُصُّ عليه كيفَ فَغَرَ(٧) البحرُ فاه ، وابتلَع أباها ، ولم يَرحَمْ يُتمَها ، وها هِىَ ذِى الآنَ فى كفالةِ عمِّها يَكلؤُها(٨) بعين رِعايتِهِ ، ويَبذلُ كلَّ ما يملكُ

(١) ناهزت : دانت . قاربت . (٢) يداعبها : يمازحها . والمداعبة : الممازحة .
(٣) شديد (٤) ضيق (٥) الكدُّ : الشدة فى العمل وطلب الكسب
(٦) الرَّحْب : الواسع (٧) فغرَ فاه : فتحه (٨) يحفظها

فى سبيلِ هَناءتِها ، وكم تمنَّى أن تَكبَرَ بسرعةٍ ، لتُقدِّمَ إلى عمِّها بعضَ الهدايا الجميلةِ ، والتحَفِ الثمينةِ . ولا عجَبَ ؛ فخيالُ الطفولةِ الماثلُ يُملِى عليها ما تودُّ أن تردَّه إليهِ جزاءَ إحسانهِ إليها . فهى تَنْوِى أن تُهدِىَ إليه (غليونًا) فِضِّيًّا ، وحُلَّةً زرقاءَ اللونِ مُوشاةً بأزِرَّةٍ من الْماسِ وصِدارٍ[1] أحمرَ ، وساعةً ذهبيةً كبيرةً ، وقُبعةً سوداءَ ، وما إلى تلك من التُّحَفِ الغَاليةِ .

لكل رحيلٍ مهما طالَ أَوْبَةٌ[2] ، ولكلِّ سفرٍ عَودةٌ ، وها هو ذا (داڤيد) يَشُدُّ رِحالَه ليرجعَ إلى أحضانِ أمِّه ، ويعاودُهُ الشوق إلى أرضِ الوطنِ التى عليها دَرَجَ ، وبينَ رِحابِها نَما ، يتنازعُه فى عَودتِهِ أمران : تألُّمُه لتركِ (إملِى) الصغيرةِ ، ولَهْفه على رؤيةِ والدته العزيزة .

وبعد لأْىٍ ألْقَت به عصَا التَّسْيارِ فى منزلِ أمِّه ، فوجد معالمَ الحياةِ قد تغيَّرتْ فيه ؛ إذ احتَلَّه زوجُ والدتِهِ « مستر مَرْدسْتُون » وكان فظًّا غليظَ القلبِ ، يَكرَهُ (داڤيدَ) الصغيرَ كلَّ الكُرْهِ ، فلم تألَفْه نفسُ (داڤيدَ) ، وشعرَ بأن المنزلَ قد صار جَمْراً يتلظَّى ، ولكنَّه بذل جُهدَهُ فى اكتسابِ رِضا الزَّوجِ حتى لا تَضيقَ

(١) الصدار : ثوب رأسُه كالمِقنَعة وأسفله يُغشِّى الصَّدر . (٢) رجوع .

نفسَ أمِّه ، غيرَ أنَّ ذلك لم يُجْدِ نفعاً ؛ فلم يَسمح الزوجُ لزوجتِه أن تُدلِّلَ ابنَهَا (داڤيدَ) ، ولا أن تُرَفِّهَ[1] عنه كما كانت تفعلُ من قبلُ، ولكنه وَسطَ هذه المتاعبِ المُمِضَّةِ[2] كانت أمُّه تُعطيه درساً في القراءةِ والكتابةِ ، فوجدَ في الجلوس إلى الكتابِ خيرَ أنيسٍ وأحسنَ مَهْرَبٍ من الحياةِ القاتمةِ ، وآثَرَ العُزلةَ مُتخِذاً من غُرفةٍ عُليا صغيرةٍ مَسكَناً له ومَأوًى .

لم يَدَعْ (مسترِمَرْدستُون) (داڤيدَ) يَهنأُ بحياتِه الجديدةِ ، ويتمتعُ بمطالعةِ كتبِهِ التي سَلَّتْه وأنسَتْه ما يُخالجُه من ألمٍ مثل كتابِ (روبنْسُون كرُوزُو) وكثيرٍ من القصص والرِّحلاتِ ، بل ادَّعَى أنه أهملَ بعضَ دروسِهِ ، وانتحَى به مكاناً بعيداً عن أمِّه ، وأخذ يُشْبِعُه ضَرباً ، ويُوسِعُه لَكْماً ؛ إجابةً لداعِي قَسوتِه ، وغِلَظِ قلبِه . ولقد آلمُ (داڤيدَ) هذا النَّهجُ الغريبُ ؛ إذ لم يُضْرَبْ قبلَ اليومِ ، فعَضَّ يدَ الرجلِ دفاعاً عن نفسه ، فعدَّ الرجلُ ذلك جريمةً لا تُغتفَر ، وتملَّكهُ الغيظُ من هذه الفِعلةِ الشنعاء ، وراح يركل[3] (داڤيدَ) ويلكمه[4] في غير رحمةٍ،

(١) ترفه عنه : تنفس عنه . والرفاهة من العيش والرفاهية والرُّفهنية : السَّعة .
(٢) الخشنة ، القاسية . (٣) الركل : الضرب برجل واحدة . (٤) اللكم : الضرب باليد مجموعةً .

وتَركه سَجيناً فى الحجرةِ مُلقًى عَلَى الأرض يبكى ويَصيحُ ، ويَشعُر شُعوراً مُؤلماً نحوَ زوج أمِّه الذى يُبغِضُه ، ولا يَودُّ أن يَراهُ فى البيتِ . فتبدَّلَ نعيمُ (داڤيدَ) شقاء ، وسرورُه حزناً ، ورأى ما لم يَرَهُ من قبلُ من المتاعِبِ والآلامِ .

التزَمَ (داڤيدُ) وَحدَتَهُ أياماً فى غُرْفةٍ ضَيِّقةٍ لا يَرَى أحداً ، ولا تقعُ عليه عينٌ ، اللَّهمَّ إلاَّ (مِسْ مِرْدستُون) — وهىَ أختُ (مستر مِرْدستون) — التى حضرَتْ لتعيشَ مع أخيها ، وكانت أشدَّ منه قسوةً . من الصعبِ إرضاؤُها . تكرهُ الأطفالَ ، والأطفالُ يَكرهونها . تمقُتُ (داڤيدَ) و (داڤيدُ) لا يُحبها .

وذاتَ يومٍ — والأسَى[1] يملأُ جوانبَ نفسِه — سمِعَ طَرْقاً خفيفاً أنْصَتَ له ، فإذا الطارقُ (بِجوتى) خادمتُه . فهشَّ للقائِها ، وبَشَّ فى وجهِها ، وهو يسألُ عن حالِ أمِّه ، والمستقبلِ الذى ينتظرُه ، فعلِمَ أنه ذاهبٌ غداً إلى مدرسةٍ قريبةٍ من لَندن ، وسوف تودِّعُه أمُّه قُبَيْلَ الرَّحيل ، بينما « بِجُوتى » الخادمةُ ستقومُ على راحتِها ، وتكتبُ له كلَّ أُسبوعٍ . فشكرَ لها عَطفَها وعِنايَتَها .

---

(١) الأسى : الحزن .

وعند الصباحِ أقبلتِ الأمُّ تودِّعُ ابنَها وتشيِّعُه ، فرآها في حالٍ تَبعثُ الألمَ والحُزنَ ، صَفراءَ اللونِ ، حمراءَ العينينِ . فارتمَى في أحضانِها ، وسألَها العفوَ عمَّا سلفَ . فأجابَتْه إلى طَلِبَتِه[١] : على ألاَّ يحملَ لزوجِها مَوجِدَةً[٢] ، ونصحَتْه بأن يُصلحَ من شأنِه ، ويَجِدَّ في عملِه ، ودَعَتْ له بالتوفيقِ والهدايةِ .

حزِنَ (داڤيدُ) أشدَّ الحُزنِ ؛ إذ أنَّ أُمَّه — أقربَ الناسِ إليه — تُسيءُ به الظنَّ ، وتعتقدُ أنه فاسدٌ شريرٌ ، مُجحِفٌ بحقِّ زوجِها ، مع أنه ذكيٌّ مُؤدَّبٌ ، هادِئُ الطبعِ ، رقيقُ الشعورِ . فاغرورَقَتْ عَيناه بالدموعِ حينما تركَ المنزلَ . ولم يَكَدْ يُتابِعُ السيرَ إلا قليلاً حتى وقفتِ المَرْكَبةُ التي تُقِلُّه[٣] إلى لَندنَ ، تنتظرُ (بِيجوتي) وهي مُقبِلةٌ تَجرِي وفي يدَيْها عِقدٌ من الكَعْكِ ، ووَرقةٌ ملفوفةٌ بها بعضُ النقودِ ، وقد كُتِبَ عليها بيدِ أُمِّه : (هَديةٌ إلى داڤيدَ مع حُبِّي . » فقبِلَها شاكرًا ، وقسّمَ الكعكَ وأعطى سائقَ المَرْكبةِ منه نصيباً ، وهو يُجيبُ عن سُؤاله : « هل الكعكُ من عَملِ (بِيجُوتي) ؟ » فأجاب (داڤيدُ) : « نعم . فرَجاه أن

(١) الطَّلِبة : الشيء المطلوب (٢) الموجِدة : الغضب .
(٣) تُقِله : تطيق حمله ، تحمله .

يَبعثَ إِليها رسالةً بأن (بَرْكِيسَ) راضٍ . » فانتهز الفتى فرصةَ انتظارِه السيارةَ العامَّةَ فى (يَرْمُوثَ)، وكتبَ إليهَا الرسالةَ الآتية :

« عزيزتى (بيجُوتِى)

قد وصلتُ إلى (يَرْمُوثَ) سالماً ، وإنَّ (بَرْكِيسَ) راض .

كلُّ حبِّى لأمى . »

المخلص

داڤيـد

وهناكَ فى (يَرْمُوثَ) جلسَ وحيدًا إلى مائدةٍ فى مَطعَم ، وقد كان يُعكِّر عليه صفوَ الحياةِ تلك الوحشةُ المُرَوِّعَة[١] ، التى تَقطَّعَتْ لها نِياطُ[٢] قلبِه ، وملأ رُوعَه[٣] اليأسُ المُبرِّحُ . وعلى حينِ غَفلةٍ فاجأه الخادمُ ، وهو مُستسلِمٌ لتيارِ هواجسِهِ يُخبرُه بأن رجلاً سقطَ مَيتاً إثرَ تناولِهِ جَرْعَةً من الشَّرابِ ، ابتاعه من الفندق ، فارتاب الفتَى وفزِع . وكم كان سرورُ (داڤيدَ) عظيماً عند ما تجرَّعَ الخادمُ قَدَحَه حتى لا يؤذىَ شعورَ أصحابِ النُّزُلِ[٤] .

وبعد هذا الحادثِ بأيامٍ وصلَ إلى لَندنَ ، وأُخِذ إلى مدرسةٍ فى « بلاَكهِيث » وكانت مُعطَّلةً ؛ لأن الإجازةَ لم تَنتهِ بعدُ ،

(١) المفزعة ، المخيفة . (٢) عروق غليظة نيط بها القلب. ناط : علّق .
(٣) قلبه . (٤) النزْل والنزُل : ما يهيأ للنزيل وهو الضيف .

فأدركَ أنه أُرسِلَ قبلَ بدء الدراسةِ عِقاباً له . ولشدَّ ما كان ألمُه عند ما قرأ على ظهرِ مِعطَفِه بطاقةً كُتِبَتْ عليها العبارةُ الآتية بخطٍّ واضحٍ : « احترسوا منه فإنه يَعَض . » ولكن الله سَلَّم ؛ إذ لم يرَ كثيرٌ من التلاميذِ هذه الكتابةَ ، ومن رآها حَسِبها مِزاحاً .

وليسَ بعجيبٍ أن تكونَ محوَرًا تدورُ عليه فُكاهتهم وأسلوبُ دُعابتِهم ، حتى تميَّزَ[1] (داڤيدُ) من الغيظ ، ووَدَّ لو يجانِبهم ، وليسَ لهُ من دونِ ذلك بُدٌّ ، حتى قيَّضَ اللهُ له تلميذاً أنكرَ فِعالَهم ، وذَمَّ خُلقَهم ، واتخذَ منه أخاً لَه مِعواناً ، وصديقاً وفيًّا .

مرت الأيامُ ، و (داڤيدُ) يَجِدُّ فى دروسهِ حتى ظهرَ ذكاؤُه ، فازدادتْ محبةُ إخوانِه له ، والتفُّوا حوله ، يُروِى ظَمَأَهم ، ويُشبِعُ رَغبتَهم من الميلِ إلى استماعِ القصصِ والحكاياتِ .

وذاتَ يومٍ عادَه (مستر بيجُوتى وهام) يحملان له هديةً من السمكِ اللذيذِ ، فقدَّم إليهما مُفتخِرًا صديقَه الجديدَ (مسترفُورْث) وهو يُثنِى عليه ، ويُطريه[2] أيَّما إطراء ، والصديقُ يُرحِّب بهما .

وأخيرًا أَتت العُطلةُ ، وأعدَّ (داڤيدُ) العُدةَ للرحيلِ ، ورجعَ إلى بيتهِ ، فقابلَه السائقُ (بَرْكِيسُ) واجمًا[3] ، ولم يَخفَ عليه

---

(١) تميز من الغيظ : تقطع (٢) أطراه : مدحه . (٣) الواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .

وجومَه ، وفَطِن لأمره ، فوعَده أن يَعملَ عَلَى تهدئةِ خاطره ، وإراحةِ ضميره . وقد كان سرورُ أمِّه وخادمهِ (بيجُوتى) عظيماً بلقائهِ ، فقضَى يوماً هَنيئاً يُداعِبُ فيه (داڤيدُ) أخاه المولودَ الصغيرَ ، ويُدلِّلُه ، ويُظهرُ له حُبَّه وعَطفَه ، فى وقتٍ غاب فيه عن الأُسرةِ (مستر مَرْدستُون) وأختُه . ولكنهما عند ما عادا سَرعانَ ما بدا البغضُ على مُحيَّاهما[1] ، ووبَّخاه على مُعاملته ، ومنعا منه أخاه ، وحَرَّما عليه الجلوسَ مع (بِيجُوتى) . فخنِق[2] فى نفسِه ، وكظَم غيظَه حتى انقضَت الإجازَةُ ، فودَّع أهلَ البيتِ ، وقبَّلتْه أمُّه قُبلاتٍ كلُّها عطفٌ وحنانٌ ، وقدَّمتْ إليه أخاه الصغيرَ ليَراه حينما أخذَ يركَبُ المرْكَبةَ للعَودةِ إلى المدرسةِ .

وبعدَ شَهرين من عَودتهِ أرسلَتْ إليه إحدَى صديقاتِ أمِّه تخبره بموتِها ، فحزِنَ حزناً شديداً ، وتألَّمَ إخوانُه كلَّ الألمِ ، ورجعَ إلى بيتهِ فى اليومِ التالى ، فعلِمَ وفاةَ أخيهِ الصغيرِ ، فكان حزنُهُ أشدَّ وأوقع . قابلتْه (بِيجُوتِى) وهى تخفِّفُ عنه لَوعةَ الأسى[3] ، وحدثَتْه عن مرضِ أمِّه ، ورسائلِها الرقيقةِ إليه ، وهى على فِراشِ

---

(١) وجههما (٢) خنِق : اغتاظ ، والخَنَقُ : الغيظ . (٣) الأسى : الحزن .

الموتِ تحتضرُ[1] ، ودَعَواتها الصالحاتِ المبارَكةِ بأن يَحفظَه اللهُ ويَحرُسَه بعنايتهِ ، ويَكتبَ له النجاحَ والتوفيقَ .

هكذا قُدِّر (لداقيدَ) أن يفقِدَ أمَّه وهو غلامٌ ، وأن تُحرَمَ نفسهُ روحَ الإشفاقِ والحنوِّ عليه ؛ فقد تجاهلَه زوجُ أمِّه كلَّ التّجاهلِ ، وأنكرَتْه (مِس مَرْدِستُون) وزادتْ كَراهِيتُها له . وغادرت (بجوتِى) المنزلَ وهى تَصحَبهُ لزيارةٍ قصيرةٍ لأخيها . وفى الطريقِ علِمَ منها رَغبةَ (بركيسَ) فى تَزَوجِها ، ورِضاءَها عن هذا القِرانِ السعيدِ . وقد فرِح كلُّ مَن فى بيتِ (مستر بجوتى) برؤية (داقيدَ) ، وعَملوا جُهدَ الطاقةِ على راحتهِ والتّرفيهِ عنه ، حتى (إملِى) الصغيرة ؛ فقد غمرَتْه بعَطفِها ، وجلسَ إليها يُحدِّثها عن فَقدِ أمِّه ، وهى تَذرِفُ[2] قَطرَاتِ الدّمعِ من مآقيها أسوًا لجراحِهِ ، وتعزيةً لفؤادِه المكلومِ[3] . وكم وَدَّ لو يكونُ (مستر بجوتِى) وصيًّا عليه ؛ حتى لا يَشعُرَ بيُتمٍ ، ولا يُحِسَّ آلامَ الحياةِ .

شاءَ القَدَرُ وأرادتِ العِنايةُ الإلهيَّةُ أن يَتمَّ زواجُ « بَرِكيسَ » الحوذىِّ و « بجُوتِى » ، فقضى « داقيدُ » الليلةَ الأخيرةَ من زيارتهِ

---

(١) احتضر بالضم : حضره الموت

(٢) ذرفت العين : سال دمعها . (٣) المجروح

بمنزلِهَا ، مُرحِّبةً بحضورهِ ، مُزوِّدةً إياه بنصائحها ، وأنها سوفَ تُفكِّرُ فيه إلى الأبدِ ، إن قَرُبَ وإن بَعُد ، وأنَّ منزلَها سيكون مُعَدًّا للقائه ، فى كلِّ لحظةٍ ، فى صِغَرِهِ وفى كِبَره . فشكَرَ لها حُسنَ إخلاصِها ، وجميلَ رعايتِها ، وشعَرَ بما تُضمِرُه له من حُبٍّ وإخلاصٍ . ثم عادَإلى دارِه بعدَ أنْ ودَّعَتْه، ودلائلُ الحبِّ الصادق ، والوفاء الحقِّ ، ترتسمُ على مُحَيَّاه .

شعرَ « داڤيدُ » المسكينُ بألَمِ الوَحدَةِ والعُزلَةِ بعد موتِ أمِّه وفراقِ خادِمِه . ولم يَجِدْ قلباً بجوارِهِ يُذهِبُ عنه ما ألمَّ بِهِ من أتراحٍ . ولم يجدْ من يُزجِى إليه كلمةَ عطفٍ ، أو يُلقى إليه نَظرةَ حُبٍّ . لم يجد سِوَى شَخصين قَضَيا على حياةِ أمِّه ، هما زوجُها وأختُ زوجِها .

عاش « داڤيدُ » تلك الفَترةَ[1] من حياتِه معيشةً كلُّها بؤسٌ وشقاء ، واستسلمَ لهواجِسه القاتلةِ ، حزيناً كسيرَ الخاطِر ، وبخاصَّةٍ بعدَ أن عرَفَ أنه لن يعودَ إلى المدرسةِ ، رَغمَ ميلهِ الكثير إلى الاغترافِ من مَنهلِ العلمِ ، وحبِّ التعلمِ . ولم يَجدْ سَلوَى تُبعِدُه

(١) الفترة : المدة .

عن همِّه إلا زيارةَ « بيجُوتى » الفَينةَ(١) بعد الفينةِ . وبينما هو على هذه الحال يتجرعُ كئوسَ الهمِّ المُترَعة(٢) ، ولا يجدُ من يُعنَى بشئونهِ، ولا من يهتمُّ بأمورهِ، أخبَرَه زوجُ أمِّه «مستر مرْدستُون» بذَهابهِ إلى لَندن فى الغدِ للعملِ فى شَرِكةِ «مرْدستُون» واكتسابِ معاشهِ . وما كادتْ تطلُعُ عليه شمسُ النهارِ حتى كان بجانبِ المديرِ ليتسلَّمَ العملَ ، ويقاتلَ العالَمَ ، والعالَمُ يُقاتلُه .

اقتحمَ « داڤيــدُ » ميدانَ الحياةِ العمليةِ ، وهُو لم يتجاوزْ عَشْرَ سنين ، وبرَزَ بينَ عُمالِ أسدلَتْ عليهمُ الأميةُ سِتارَ الجهل ، يَعمَلُ فى أحطِّ الأعمالِ وأخسِّها ؛ يَغسِلُ الزجاجاتِ ، ويلصَقُ الإعلاناتِ ، فتحرَّكتْ فى نَفْسِهِ صفحةُ الماضِى . وتذكَّرَما كان يُؤمِّلُه من مُستقبلٍ زاهرٍ ، وحياةٍ رَغْدٍ(٣) بينَ إخوانهِ فى المدرسةِ ، وخِلاَّنِه فى قريته . ولا عجبَ إذا بكَى غابِرَه بدموعٍ حارَّةٍ ، فإنما يبكِى عيشاً قوَّضَتْ(٤) دعائمَه كوارثُ الدهرِ ، يبكِى آمالَه فى أن يكونَ رجلاً مُثقَّفاً عظيماً ، يبكِى خوفاً من أنْ يَنسَى كلَّ ما تعلَّمه فى المدرسةِ ، يبكِى لأنه لم يستطِعْ أنْ يُتِمَّ تعليمَه بالمدرسةِ بعدَ أن

(١) الفينة بعد الفينة : الحين بعد الحين .
(٢) المترعة : المملوءة .
(٣) يقال : عيشة رغْد ورغَد أى واسعة طيبة .
(٤) نقضت

قَذَفَتْ به السِّنون إلى ذلك المَعمَل ليكسِبَ عيشَه وهو طفلٌ ، وإلى أسرةِ « مِيكوبَر » وقد أثقلَتْها الديونُ ، ولا تَعرِفُ معنى التربيةِ ، مع ما كانَتْ عليه من طِيبِ القلبِ ، وحُسنِ المعاملةِ ، فلم يجدْ بدًّا من مساعدتِها ، ومَدِّ يدِ المعونةِ إليها . وكيف تُجدِى مساعدتُه ، وهو لم يَزَلْ صغيرا ، لا يستطيع أن يقومَ بما يَكفِى نَفَقاتِه ؟ ولولا ما كَلأَتْه[1] به القُدرةُ من عنايةٍ ، ووهبَتْ لَهُ من طهارةٍ واستقامةٍ لسار مع الشاردين ، وأصبحَ بينَ المجرمين ، يهيمُ على وجهِهِ فى الطُّرُقاتِ يفترِشُ الأرض ، ويَلتحِفُ[2] بالسماء ، ولكنَّ اللهَ حفِظَ ذلك اليتيمَ من الشرورِ والآثامِ .

لم تَكتفِ الأيامُ بما حَلَّ بداڤيدَ من بؤسٍ وشَقاء، بل أخذَتْ تَكيلُ له صنوفَ الإيلامِ ؛ فإنَّ أسرةَ « مِيكوبَر[3] » التى ألِفَ صداقتَها، ومالَ إلى العيشِ مَعها انتابَتْهَا النكَباتُ سِراعًا ، فشدَّتِ الرِّحالَ إلى بلدٍ آخَرَ ، فودَّعها بعدَ أنْ أهدَى إلى صغارِها هَدايَا من اللُّعَبِ التى اشتراها بما اقتصدَهُ من قُوتِه .

(١) كلأه الله يكلؤه كلاءة : حفظه .   (٢) يلتحف : يتغطى .

(٣) اتخذ دكنز اسم ميكوبر رمزاً خياليا لأسرته ، فهو حينما يتكلم عن ميكوبر يتكلم عن أبيه (جن دكنز) . وحينما يتكلم عن (مسز ميكوبر) يتكلم عن والدته .

بلغ به اليأسُ أشدَّه، وكرِهَ العملَ فى تلك الشَّركةِ، واضطُرَّ للبحثِ عن مَسكَنٍ مع غُرَباء، ولكنْ كيفَ يَلَذُّ له عيشٌ فى بُؤَرِهِم؟ فوجدَ أن الْحاجةَ ماسةٌ لمكاتبةِ «بيجوتى» يسألها عن مَسكَنِ عَمتِهِ «مِسْ بِتْسِى تْرَ تْوُودْ» التى حدَّثتْهُ أمُّه عنها كثيرًا، ووَدَّتْ لو يزورُها لشدَّةِ حَدَبِها[1] عليهِ، ورَحمتِها به؛ فِراراً من تلكَ الْحياةِ التَّعِسة.

فأجابته (بيجوتى) إلى طَلبهِ، وأخبرته بأنها فى (دُوفَر)، وزَوَّدتْه ببعضِ ما يحتاجُ إليه من نقودٍ فى سفرهِ. ولما انقضَتْ أيامُ الأسبوعِ، وَوَفَّى ما عليه من دينٍ للشركةِ، أزمَعَ[2] على الرحيلِ، ومُغادرةِ تلك الديارِ، فبحَثَ عن حمَّالٍ يحمِلُ عنه صندوقَه، فعثر على شابٍّ، ولسوءِ الحظِّ كان لصًّا سلَبَه كلَّ ما يحمِلُ حتى نقودَه اليسيرة، وتركه صِفْرَ اليدين حائرًا لا يَلوِى على شىءٍ. وبعد لأْىٍ لم يُجدِه نفعاً عَزَم على السفرِ ماشياً، فتابعَ السيرَ، ولكن الجوعَ أنهكَ قُواه، فلم يجدْ وسيلةً تنقذه من مخالبِ الموتِ سِوَى أن يبيعَ ملابسَه الزائدةَ

---

(١) عطفها عليه (٢) أزمع على الرحيل: ثبَّت عليه عزمَه. هذا ما قاله الخليل. وقال الكسائى: يقال: أزمع الأمرَ ولا يقال أزمَعَ عليه. وقال. الفراء يقال: أزمع الأمرَ و أزمع عليه كما يقال أجمعَ الأمرَ وأجمعَ عليه.

ليشترىَ بثمنِها ما يحتاجُ إليه من الخبزِ الضرورىِّ فى أثناء سفرِه حتى لا يَنفَدَ دونَ أن يصلَ .

وبعدَ ستةِ أيامٍ على هذه الحالِ ، وصَل إلى (دُوفَرَ) مُمزَّقَ الثيابِ ، مُغبَرَّ المنظَرِ ، بين الحياةِ والموتِ . وفى أوَّلِ الأمرِ لم يُوفَّقْ إلى مَعرفةِ مَسْكَنِ عمتهِ . وبينما هو فى الطريقِ يَبحثُ إذ اعترضَتْه مَركبةٌ سقَطَ منها غِطاء الحصانِ، فناولَه للسائق ، ثم سأله عن بيت (مِس تْرَتوُود) عمتهِ ، فأرشدَه إليه .

سارَ (داڤيدُ) وطريقه إلى المنزلِ فتلاقَى مع خادمِ (مِس تْرَتوُود) ، فهدَتْه إليه، ثم تركتْه واقفاً بالبابِ تصطكُّ أسنانُه من هَولِ البرْد ، وهو يتطلَّعُ إلى النوافذِ عَلَّهُ يَرى شبَح عمتهِ ، فوقعَ بَصَرُه على رجلٍ تلوحُ عليه سِيما[1] الوقارِ . ولكن فكرَه لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ ، بل سبَح فى مَيدانِ البحثِ عما يَفعَلُ . وعلى حينِ غفلةٍ رأى سيدةً مُسِنَّةً مُعتدِلةَ القامةِ ، تلبَسُ مِيدَعة ، وفى يَدِها سِكينٌ لقطعِ الحشائشِ من الحديقةِ . وما وقع بصَرُها عليه حتى أمرتْه بأن يفارقَ المكانَ .

---

(١) علامة .

تحطَّمَ قلبُ « داڤيدَ » المسكين ، وملكَ اليأسُ فؤادَه المكلوم فتقدمَ إليها — وأناملِه ترتعِشُ[1] ، وفرائصُه[2] ترتعد — يقول : « عمتى ، رِفقاً بى » . فعجِبَت أيّما عجَب ، وحدَّقَت[3] إليه تحديقاً تستمعُ لحديثه وهو يقول :

« أنا داڤيد كَبَرْفِيلْد » من بلدة « بْلَنْدَرْستُونَ » حيثُ أتيتِ وأنا طفلٌ ، ورأيتِ أمى العزيزة ، وقد عِشتُ مَعيشةً كلُّها شَقاءٌ مُنذ أن اختارها الله لجِوَارِه ، وأُهمِلْتُ كلَّ الإهمَالِ ، وحُرِمْتُ التعليمَ ، وقُطِعتُ من المدرسةِ ، وطُرِدتُ من المنزلِ ؛ لأكْسِبَ عَيشِى وأنا طفلٌ . ووُضِعت فى شركةٍ لأعملَ عَملاً لا أصلُحُ له، ولا يصلُحُ لى . وقد اضطُرِرْتَ أخيراً إلى الهرَبِ من تلك البيئةِ ، والالتجاء إليكِ . وسرَق أحدُ اللصوصِ نقودِى فى مبدإِ سفرى ، فأتيتُ إليكِ ماشياً ، واستغرقَ سَفرى ستةَ أيامٍ ، لَقيتُ فيها ما لَقيتُ من متاعبَ وآلامٍ . ولم أنَمْ فى سريرٍ مُنذُ بدأتُ تلك الرحلةَ الشاقَّةَ . » وأخبرها بأنه لم يَلجَأْ إليها إلا لتُزِيلَ عنه ما غشيهُ من غَمٍّ وهَمٍّ ، ثم استرسلَ فى بُكائه بعد أن

---

(١) ارتعش وارتعد : اضطرب . (٢) الفرائص : جمع فريصة وهى لحمة بين الجنب والكتف لاتزال تُرعَد من الدابة . (٣) التحديق : شدة النظر

أتمَّ حديثه . فأشفقَتْ عليه ، وقادتْه إلى المنزلِ ، وأعادتْ لتحفظَ به حرَارةَ الدَّم بما أعطتْه إياه من شَرابٍ ودَواء ، وطَلَبتْ من السيِّد « دِك » — الذى رآه « دَاڤيدُ » مُطِلاً من النافذةِ — النزولَ ، ثم أخبَرَتْهُ بأمرِ هذا الغلامِ ، مُستَفسِرةً عما تفعَلُ ، فنَصحَ لها بإعطائهِ حَماماً ساخِناً ، وتغييرِ ملابسهِ القَذِرة . فلاقَت هذه الفكرةُ منها قَبولاً . وفى الحالِ كان « داڤيدُ » يَرفُلُ[1] فى ثيابٍ غاليةٍ ، وينامُ على فِراشٍ وثيرٍ[2] ، وعَمتُه تُرتِّبُ له شَعرَه وتقول : « ما أجملكَ أيُّها الفتَى المِسكين . »

وبعد تناولِ الغِذاء ووَسطَ هُدوءٍ شاملٍ تلحظُه عينُ العنايةِ الساهرةِ ، جلسَ « داڤيد » إلى عمتهِ والسيِّد « دِك » يقُصُّ عليهما قِصَّتَه من جديد ، والأسفُ ملءُ جَنْبَيه . وما كادَ يفرُغُ من حديثهِ حتى نصحَ السيِّد « دِك » بأن يذهبَ الفَتى إلى الفِراشِ ليستريحَ من وَعْثاءِ[3] السفرِ ، فنامَ فى تلكَ الليلةِ نوماً عميقاً هادئاً ، حامداً اللهَ على نَعْمائهِ الجزيلةِ ، داعِياً بقَلْبه ألاّ يحكُمَ اللهُ عليه بالطَّردِ والشقاء ، وأن يَقِيَه ذُلَّ السؤالِ ، والوَحدَةِ والبؤسِ ، وأن يَرحَمَ أولئك الأطفالَ الذين لا مَلجأَ لهم ولا نصيرَ .

(١) رفل فى ثيابه : أطالها وجرها متبختراً (٢) ممهد ، مريح (٣) وعثاء : مشقة

وفي الصباحِ التالي أخبرَته عمتُه بأنها بعثَتْ[١] إلى السيِّد « مَرْدستون » كتاباً ، ففزِعَ الفتى لسماعِ هذا النبأِ ، وحارَ في أمرِه ، كيف يَفعلُ إذا أجبرَتْه على العَودةِ معه ، وهو لا يريدُ أن تجمَعَهما الأيامُ ثانيةً بعد فِراقِهما . فاختلفَ عليه الحالُ ، ولم يفهم السرَّ من إرسالِ هذا الكتابِ ، وبقِيَ في حَيرةٍ دَبَّت فيها خواطرُ السوءِ في نفسِهِ حتى وصَل زوجُ أمِّه ومعه أُختُه . وقد اغتاظت العمَّةُ حينما رأتْ الآنسةَ « مَرْدِسْتُون » مُمتطيةً حِمارًا يَسيرُ على حشائشِ الحديقةِ ، فطرَدتِ الحمارَ وسائقَه ، ثم استَقبلت الزائرَيْنِ بعد أن أجْلسَتْ « داڤيدَ » على مَقعدٍ بالقربِ منها . ولما استقرَّ بهم المجلسُ تحدَّثَ السيِّد « مَرْدِسْتُون » إلى عمةِ « داڤيدَ » عن أخلاقِهِ ، ومُحاولةِ إصلاحِهِ ، وإقامةِ ما اعوَجَّ من سُلوكِهِ وهرَبِهِ من المعمَلِ ، وأنه الآنَ آتٍ لأَخْذِهِ ، فإِن أبتْ فلنْ يَطرُقَ له باباً بعد اليومِ .

حينئذٍ لم يَسَع العمةَ الرءومَ إلاّ أن تسألَ « داڤيدَ » قائلةً : « أأنتَ مُستعدٌّ للذهابِ يا داڤيدُ ؟ » فتوسَّل[٢] إليها الفتى ألَّا تُجيبَ رَغبةَ هذا الرَّجلِ وأختِهِ ؛ فإنهما لم يُحبَّاه ، ولم يَعطِفا عليه ، وجَعلا أُمَّه ترسُفُ[٣] في قيودِ الذُّلِّ والاستعبادِ ، فعاشَتْ شَقِيَّةً

---

(١) بعثت : أرسلت (٢) تضرَّع وتقرَّب (٣) رَسَفَ : مشَى مشيَ المقيَّد

تَعِسَةً[١]، محرومةً ابنَها، مُبْعَدَةً عنه، ورَجاها أن تَحتفظَ به إبقاءً لذِكرَى أبيهِ الراحل.

فتردَّدت العَمَّة بُرهــةً استمانَتْ فى خِلالِهـا بالسيِّد «دِكْ». الصائبِ الرأيِ، الحاضرِ البديهةِ، فنصَحَ لها بأن تَذهبَ وتشترَىَ له ما يحتاجُ من مَلابسَ، وتُبقِيَه معها. فشكَرتْ له حُسنَ تدبيره، وخالصَ نُصحِه، ثمَّ رفَضَت إعطاءَ الغلامِ لزوجِ أمِّه؛ ذاكرةً أنها ستحاولُ إصلاحَه ما استطاعَتْ إلى ذلك سبيلا. وما أشدَّ سرورَ «داڤيدَ» حينَ سمعَ النطقَ بهذا الحكمِ العادِلِ؛ فقد تهلَّلتْ أساريرُ[٢] وجهه بِشرًا[٣]، وامتلأَ قلبهُ جَذَلا[٤]، وطارَ فؤادُه فرَحاً، وأقبلَ على عَمتِه مادًّا ذِراعَيْه حولَ رَقبتِها يُشبِعُها لَثْماً وتقبيلاً، مُرَدِّداً عِباراتِ الشكرِ، وجزيلَ الثناء.

ومِن ذلك الحينِ بَدَأَ «داڤيــدُ» حياةً جديدةً، شَعَر فيها بعَطفٍ لم يَشعُرْ به من قبلُ، ورفَلَ فى ثيابِ العِزِّ والفَخْر، يحمِلُ اسمَ عَمتِه «ترَتْوُود كَبرْفِيلْد»، وانقشَعَتْ عنه سَحابةُ الظلامِ الداكِنِ[٥]، وزالَتْ تلك الغُيومُ الداجِنَةُ[٦]، التى كانت تُنذِرُ بالويلِ

(١) التعس: الهلاك (٢) أسارير الوجه: خطوطه
(٣) البِشر: السرور. (٤) الجذَل: الفرَح.
(٥) الدَّاكنة: لون يضرب إلى السواد. (٦) المتلبدة: الكثيفة.

وسوءِ المصير . وفارقَ حياةَ التعْسِ والإجرامِ ، وعاش رافِهاً(١) ، ناعمَ البالِ ، يَغترِفُ العِلمَ فى أحسنِ المعاهدِ فى حِياطةِ عمتِه التى مَحَّضَتْهُ(٢) نُصْحَها بقولِها : « ترُتْ كَبَرْفيلد » ، ثِقْ بنفسِك ، وجِدَّ فى دُروسِك . وأحِبَّ لأخيك ما تحِبُّ لنفسِك . ولا تؤَخِّرْ عملَ اليومِ إلى الغدِ . ولا تقِفْ مَوقِفاً مُخجلاً . وإياكَ والدناءةَ والقَسْوةَ والكَذِبَ . تجنَّبْ هذه الرذائلَ الثلاثَ . وسأضَعُ كلَّ آمالِى فيك . وأرجو أن تكونَ عند حُسنِ ظَنِّى بك . »

ولم يَكَدْ يَسمعُ هذه النصيحة الغاليةَ حتى بذَلَ ما فى وسعِه لتحقيقِ امنيَّتِها ، والوصولِ إلى رَغبتِها الصادقة ، فصارَ رَجُلا عظيما ، وكاتباً قديراً ، وأديباً كبيراً ، ومُمَثِّلاً ماهراً ، وخطيباً مفوَّهاً ، ومُصلِحاً اجتماعيًّا ، يُدافعُ عن الفقراء ، وينصُرُ المظلومِين. تَعرَّفَ إلى أصدقائِه القدماء ، واتخذَ بطانَةً من أخلصِ الأوفياء ، ولا عجبَ؛ فتلك طبيعة الزمانِ ، ما كَشرَ عن نابٍ إلاّ ابتسم ثغرُه عن نجاحٍ باهرٍ ، وتوفيقٍ كثير . فالسعادةُ يجبُ أن تُشترَى ، ولا بُدَّ لها مِن ثمنٍ . ولا ثمَنَ لها إلا تحمُّلُ المتاعبِ والآلامِ.

---

(١) بنعيماً سعيداً . (٢) أخلصتْ له .

القِصّةُ الثانيَة

كناسُ هُولبُورْن

(چُو) شابٌ فى الثلاثينَ من عُمرِه ، مديدُ القامةِ ، هزيلُ البدَنِ ، طويلُ العُنُقِ ، دميمُ[1] الخِلْقَةِ ، ضَيِّقُ الجبهةِ ، ضاقَت سُبُلُ الارتزاقِ فى وجهه ، فلم يَجِدْ حِرفةً يكتسِبُ منها قُوتَه غيرَ الكَنسِ فى حىِّ « هُولْبُورْنَ بلَندنَ » .

كان يخرجُ من منزلِهِ مُبَكِّراً . وقد حمَلَ على كَتِفِه مِكنَسَةً ، ومِكتَلاً[2] ، ومَرًّا[3] يُزيلُ به الثلوجَ والأوحالَ المتراكمةَ على سَطحِ الأرضِ . كان لا ينفَكُّ يَعْمَلُ صيفاً وشِتاءً ، لا يَثْنيه عن ذلك شدةُ القُرِّ[4] ، ولا انهمارُ المطرِ ، ولا تساقطُ الصقيعِ . حياةٌ مُرَّةٌ قاسيةٌ تلك التى كان يَحياها « چو » ؛ فهو على الدوامِ ردىءُ البِزَّةِ[5] ، قذِرُ الملابسِ ، خاوِى البطنِ ، يسمعُ مُرَّ الشتائمِ من الناسِ جميعاً على السواءِ ، إنْ قدَّم له بعضُ الأغنياء شيئاً من فَضلاتِ موائدِهم النَّهِمَه فى شَراهةٍ ونَهَمٍ ، شاكرًا لهم فضلَهم

---

(١) قبيح (٢) شبه الزنبيل (المقطف) (٣) المَرُّ : لوح من الحديد يعرف « بالكريك » (٤) شدة البرد (٥) الهيئة

وإحسانَهم من غيرِ أن يعرفَ أن ذلك أقلُّ ما يجبُ عليهم نحوَه .
لقد أَلِفَتْ نفسُه الضَّعَةَ(١) ، واعتادتْ عَدمَ الاكتراثِ لما ينالُه من ذُلٍّ وتحقيرٍ .

نشأ فقيراً مُعدِماً ، لا يعرِفُ له أباً ولا أمًّا ، هو ابنُ السبيلِ ، نشأ فيه وتربَّى بين شوارِعِه وحاراتِه . وجدَ الناسَ يُنادونه باسم « چُو » ، وهو لا يعرفُ اسمَ ذلك الوالدِ الذى أرسلَه ليَشقَى فى هذه الحياةِ ، ولا اسمَ الأُسرةِ التى ينتمِى(٢) إليها .

لم يذهبْ إلى المدرسةِ ، ولم يتعلم القراءةَ والكتابةَ . ولم يستطعْ تهجيةَ اسمِه ، ولكنه كان يعرِفُ شيئاً واحدًا هو : « الصدقُ فضيلةٌ ، والكذبُ رذيلةٌ » . ولذا كان يقولُ الحقَّ دائماً ، ويتمسكُ بالحقِّ ، ولا يَعرِفُ إلا الحقَّ . وكان مع هذا يعرِفُ شيئاً آخَرَ هو الجوعُ ؛ فقد جاع كثيراً ، وقاسَى آلامَ الجوعِ ، وعرَف معنى الجوعِ وأعراضَه ودَواءَه .

• كان « چو » يسكُنُ فى حَىٍّ « تُمْ أُولْ أُونز » وهى ناحيةٌ قذِرةٌ تتراكمُ فيها الفضَلاتُ التى تنبعثُ منها الروائحُ الكريهةُ .

---

(١) تعودت المذلة (٢) ينتسب

وشوارعُها ضيِّقةٌ مُتعَرجةٌ يَكثُرُ فيها الطينُ والوَحْل . منازلُها قديمةٌ مُتداعِيَةٌ ، لا مَنفَذَ فيها لضياء ، ولا مَسرَى لهواء .

قد يَبلغُ عددُ سكانِ الحجرةِ الواحدةِ عشرةً ينامون جنباً إلى جنبٍ بأجرٍ تافهٍ يَدفعونه آخرَ كلِّ أسبوع . وكان لا يَسكنُ فى ذلك الحىّ إلا أفقرُ الطبقاتِ من فقراءِ لَندنَ ، تُغطِّى أجسامَهم أسمالٌ تصِفُ الشقاءَ . ملابِسُهم لا تَقِيهم نافحَ[1] البردِ ، ولا وابلَ[2] المطرِ . لم يكنْ « چو » مجهولا لَدَى سُكانِ ذلك الحىّ ؛ فما من رَجلٍ أو سيدةٍ أو طفلٍ يستطيعُ أن يقُولَ إنَّ « چو » لم يُقدِّمْ لى خِدمةً ، أو إنه لم يَقمْ لى بعملٍ من الأعمالِ . وقد اعتادَ أهلُ ذلك الحىّ أن يُلقِّبوا كلَّ ساكنٍ فيه بلقَبٍ يُنادَى به ، ولا يَمُتُّ[3] إلى اسمِه بصِلةٍ ، فإذا سألتَ عن « چو » مثلاً قِيل لك : أتقصِدُ « كارُوتْزَ » أم « الكُولُونيلَ » أم « الجالُوزَ » أم . . .

فى إحدَى الليالِى القارسةِ البردِ وقفَ « چُو » فى الشارعِ تحت أحدِ المصابيح ، وقد اتَّكأَ على المَرِّ ، ووضَع المِكتلَ تحتَ قدميْه لِيَقِيَهُ البردَ ، وأسنَد المِكْنسةَ إلى الجِدارِ ، وأخذ يُفكِّرُ

(١) شديد البرد (٢) شديد المطر (٣) يتصل

فيمن يقْصِده من سكانِ الحىِّ مستجدِياً[١] . وبينا هو كذلك إذ رأى شخصاً يَدْنُو منه ، ويتفرَّسُ[٢] فى وجههِ ، ثم يقول له : « مالى أراكَ زائغَ البصر؟ فيم تفكِّرُ؟ إخالُ[٣] أنك محمومٌ أو جائعٌ مَضتْ عليك أيامٌ بل أسابيعُ لم تتناوَلْ ما تُمْسكُ به رمَقَك[٤] . دُونك[٥] تلك القِطعةَ الفِضِّيةَ . . . أسرِعْ إلى أقربِ مطعمٍ . . . ولكنْ قبلَ أن تنطلِقَ عرِّفْنى من أنتَ ؟ هل لك صديقٌ فى هذهِ الحياةِ ؟ » .

فقال ، وقد فَغَرَ[٦] فاه دَهِشاً : « إننى « چو » . ليس لى صديقٌ . . . أيمكنُ أن يجدَ فقيرٌ مُعدِمٌ مِثْلى صديقاً ! !

ألا تتخذُ مِنى صديقاً ؟ إننى مثلك وحيدٌ لا صديقَ لى .

تصافحَ الرجلان ، ومضى هذا ليُشبِعَ جَوْعَته ، وانطلقَ ذاكَ إلى كوخِهِ الذى يعيشُ فيه مَزهوّاً[٧] مسروراً ؛ إنه قد وجدَ الصديقَ .

لم يكُن هذا الرجلُ أحسنَ حالاً من « چُو » ؛ فقد كان ممزَّق الثِّيابِ ، أشعثَ[٨] أغبرَ ، يعيشُ مما يكسِبُه من صُنعِ بعضِ اللُّعَبِ

---

(١) طالباً العطية والإحسان (٢) يتأمل (٣) أظن (٤) الرَمَق : بقية الحياة
(٥) خذ (٦) فتح فمه (٧) فخوراً (٨) مغبر

الساذَجةِ التى يبيعُها لأبناءِ الفُقَراءِ بأتفهِ الأثمانِ . وقد يَمرُّ عليه اليومُ إثرَ اليومِ ، وهو يعرِضُ سِلْعَته على الأطفالِ ، ولا يجدُ بينهم من يحمِلُ فى جيبِه درهماً يشترى به إحدَى اللُّعبِ .

كانا يلتقيانِ كلَّ يومٍ فيتحدثانِ طويلاً ، ويقُصُّ كلٌّ منهما عَلَى صاحبِهِ ما لاقاه فى يومِهِ ، حتى إذا ما حانَ وقتُ النومِ انْصرفا بعدَ أن يَدُسَّ ذلك الرجلُ فى يدِ « چو » قطعةً أو قطعتين من البُرنزِ إن كان معه نقود ، وإلا اعتذرَ له عن عُدْمِه[1] بقوله : « إننا اليومَ فى الفقرِ سواءٌ يا « چو » ، ثم يَمضى وهو دامعُ العينِ .

لقد شاءتِ الأقدارُ أن تُفرِّقَ بين الصديقَين اللَّذَيْنِ تعارَفا على غيرِ مَوعِدٍ ؛ فقد ضَمَّ أحدَهما القبرُ من غيرِ أن يسيرَ إلى جوارِه غيرُ صديقِه ؛ وبقِيَ « چو » ليندُبَ حظَّهُ العاثِرَ[2] ، وليبكىَ بدمعِهِ المنهمرِ ذلك الصديقَ المحسنَ .

كان « چو » يعملُ قُبَيْلَ الغروبِ ، فجاءهُ شُرْطىٌّ وأمرَه بأن يتبعَه إلى دارِ الشُّرَطِ . ولما مَثَل بين يدَىِ الموظَّفِ المختَصِّ سأله عما يعرفُ عن الميِّت ، فقصَّ عليه — ودموعُهُ تنهمِر غزيرةً من مآقيه — كلَّ ما عرفَه عنهُ من نُبْلٍ ، وشهامةٍ ، وفَضلٍ . وذكرَ له

(١) العُدْم : الفقر (٢) الساقط ، التعس

كلَّ ما سمعه منه خاصًّا بأهلِهِ ونشأتِه . ولما انصرفَ من تلك الدار وجد فى جيبه « شلنين » ، فوقَع فى حَيْرَةٍ من أمرِه ، وأخذ يُسائِل نفسَه : أَنَّى لكَ ذلكَ المبلغُ الكبيرُ ؟ وكيف وَصلَ إلى جيبكَ ؟ ولم يَدْرِ أن مُحسنًا كان يرى بُكاءه ويستمعُ لحديثه ، فأخذته الشفقةُ عليهِ ، فأسقَطَ ذلك المبلغَ فى جيبِه وهو خارجٌ من دار الشُّرَط .

لقد كان « چو » وفيًّا لصديقه بعد مماتِه ، كما كان مُخْلِصًا له فى حياتِه ؛ ففى كلِّ يومٍ يذهبُ إلى قبرِه ، فيكنُسُ ما حولَه ، ويُبلِّلُ الترابَ بدَمعِه الغزيرِ ، ويُناجيه[١] بألوانٍ من الذِّكرى المُؤثِّرةِ فى عباراتٍ عميقةٍ ، ويَدْعو اللهَ أن يُسكِنَه فسيحَ جنانِه ، ثم ينطلقُ إلى عملِه ، وهو يرتقِبُ[٢] اليومَ الذى يجتمعُ فيه بصديقِه فى تلك الدارِ التى لا يعرفُ فيها المرءُ ذُلاًّ ولا هَوانًا .

بعد بِضعةِ أيامٍ من موتِ ذلك الصديقِ قصدَتْ سيدةٌ — تلبَسُ السوادَ — « چو » ، ورجَتْه أن يَدُلَّها على المقبَرةِ التى دُفِنَ فيها صديقُه ، ثم قدَّمتْ له قطعة مستديرةً صفراءَ ذاتَ بَريقٍ أَخاذٍ[٣] ، فردَّها إليها ؛ لأنه لم يشَأ أن يأخذَ أجرًا على عملٍ يَحسِبُهُ من

(١) يحادثه (٢) ينتظر (٣) شديد

واجبِ الوفاءِ لصديقه ، ولكنها أبَتْ أن تَسْتَرِدَّها ، ورَجَتْه أن يستعينَ بها على الجوعِ والفقر.

سار « چو » أمامَ السيدةِ مشغولَ الفِكرِ بتلك القطعةِ الصفراء التي مُنِحَها[1] . لقد حَسِبها أولَ الأمرِ قطعةً نُحاسيةً ، ولكنه وجد أنها لا تَمُتُّ[2] إلى النحاسِ بصِلةٍ . ألا يمكنُ أن تكونَ « الجنيه » الذهبَ الذى تَمتلِئُ بأمثالِهِ جيوبُ السادةِ الأغنياء ؟ بَلَى ، إنه « جنيهٌ » من الذهب . ثم سارَا حتى وصَلا إلى المقبرةِ ، وهناك جَثَت[3] السيدةُ أمامَ القبرِ ، وأخذت تُصَلِّى وتدعو ، بينما كانت دموعُها تتساقطُ غزيرةً من مآقِيها .

إنها سيدةٌ يَبدُو عليها الوقارُ ، تُزَيِّنُ أصابِعَها بخواتمَ رُصعَتْ بالأحجارِ النفيسةِ . إنها تبكى ذلك الفقيرَ الذى طَواه الرَّدَى[4] فى تلك الُحفرةِ . ولِمَ تبكيه ؟ أتُراها كانت تُحبُّه ؟ إن صَحَّ ذلك فلماذا لمْ تُقَدِّمْ له فى حياتِه يَدَ المساعدةِ ، ولَمْ تُنقِذْه من تلك الحياةِ اللاغِبَةِ[5] التى كان يَحياها فى خَصاصةٍ[6] وإقلالٍ ؟ لا ، إن عاطفةً أرقى وأنبلَ من عاطِفةِ الشفقةِ هى التى تُسقِطُ دموعَها . . .

---

(١) أعطيها (٢) تتصل (٣) خرت ساجدة (٤) الهلاك والموت
(٥) الكثيرة التعب والإعياء (٦) فقر

مَنْ يَدرِى لعلَّها صديقةٌ أو قَرِيبَةٌ فرَّقَتْ بينها وبينه عَوادِى[١] الزمنِ ، وحوادثُ الأَيامِ . . . . ! ! !

عاد « چو » إلى مَأواه فى « تُمْ أولْ أَلُونْز » ، ثم بدَا له أن يتحققَ صِدقَ ما أخبرَتْه به السيدةُ عن القطعةِ التى أعطتْها إياه . فذهبَ إلى أقربِ مَتجرٍ من منزلِه ، وطلب من صاحبِه أن يبيعَهُ أُقةً من اللحمِ ، ولما طلب منه الثمنَ قدَّم له (الجنيه) ، فنظرَ إلى « چو » فى رِيبةٍ[٢] ، ثم قال له : « أ أقةَ لحمٍ و (جنيهاً) ذهبيًّا ؟ ؟ من أىِّ مخلوقٍ سَرَقتَ هذا ؟ إننى أعرفُكَ لا تملِكُ من مَتاعِ الدنيا غيرَ تلك الأَسمالِ[٣] البالية التى لا تكادُ تسترُ جسمَك . أجِبْ وإلاَّ أبلغتُ أمرَكَ للشُّرْطىِّ . . . إنه قريبٌ منا » .

عبثاً حاولَ « چُو » أن يُفهِمَ التاجرَ أن (الجنيه) وصل إليه من غرضٍ شريفٍ ، وأنَّ سيدةً محسنةً منحتهُ إياه ، ولكنَّ هذا القولَ كان يزيدُ الرجلَ إيماناً بأن « چو » لصٌّ سارقٌ ، وقد وجد الفُرصةَ سانحةً لاستغلالِ فقرِ « چو » وسذَاجتهِ[٤] لمصلحته . فلم يَدَعْ « چو » يغادرُ متجرَه إلا بعد أن تنازلَ له عن ثمانيةِ

(١) الحوادث والنوازل (٢) الريبَـة : التهمة والشك (٣) الملابس القديمة
(٤) بساطته

(شلنات) منه . عاد « چو » إلى مسكنه فتعقبه[١] لص استطاع بمهارته وحذقه أن يسلب منه باقى (الجنيه) من غير أن يشعر . وهكذا عاد « چو » فقيراً معدماً كما كان قبل أن تلاقيه تلك السيدة المحسنة .

ما أمرّ الحياة حينما يجتمع الفقر وفقد الصديق . . . لقد صارت أيام « چو » بؤساً لا حد له ، وشقاء لا نهاية له . . . كان الشرط[٢] يطاردونه أنّى ذهب ؛ لقذارته ، ورثاثة ثيابه . وكانوا يأمرونه ألا يقف ، وإن كان ذلك للاستراحة من عناء[٣] العمل . وكان كلما ذهب إلى شارعه ليكنسه طرده منه الشرطى المكلف حراسته . ولكنه يريد أن يكنس ليأكل . . . إنه جائع . . . كان يتحمل كل أذى ويصبر على كل شر حتى لا يموت جوعاً . وذات يوم تضايق منه الشرطى فساقه إلى دار الشرط متهماً إياه بوقوفه فى عرض الطريق من غير عمل ، وكلما أمره بالسير أظهر الطاعة ، حتى إذا ما انصرف عاد إلى الوقوف ، واستجداء[٤] المارة .

حقق السيد « سناجزباى » الضابط فى تلك الشكوى ، وكان يعلم من أمر « چو » الشىء الكثير ، فلم يأخذ بكلام الشرطى ، بل

(١) تتبعه (٢) جمع شُرْطة وشُرْطى (٣) تعب (٤) سؤالهم

قابل قولَه باحتقارٍ وازدراءٍ ؛ فهو يعلمُ منه الكذبَ والتدليسَ[١] والوشايةَ ، ثم قال له فى تهكمٍ مُرٍّ : « لا تخفْ من « چو » ؛ فإنه لن يُلحِقَ بك أذًى . إنه رجلٌ مُسالِمٌ لا ضررَ منه عَلَى أحدٍ كائناً مَن كان . » ثم أمرَه بأن يَمضىَ إلى عملِه ، وقال لچو : « انتظِرْنى فى الخارجِ ؛ لأنى فى حاجةٍ إليك . » فصدَع[٢] بالأمر .

ولما صارا خارجَ حجرةِ الضابط قال الشُّرْطىُّ لچو : « أيها الشريرُ ، حَذارِ أن تأتىَ إلى حىِّ « هُولبورنَ » ثانيةً . إننى لو رأيتُك فيه إذاً لأصابك منِّى ما لا قِبَلَ[٣] لك باحتماله . » ثم سارَ قليلاً ، والتفتَ إليه وقال : « لك مُطلَقُ الحريةِ فى أن تذكرَ للضابطِ ذلك الوعيدَ الذى توعَّدْتُك به ، ولكنْ تذكرْ ما سيُصيبُك إنْ أنتَ أقدمتَ على هذا . »

كان الضابطُ قد دَعا أصدقاءه لتناولِ (الشاىِ) عنده فى مَساء ذلك اليومِ ، فخطرَ ببالِه ، وهو يُحقِّقُ مَسألةَ « چو » أن يأخذَه معه عند عودتهِ إلى المنزلِ ، ليُقدِّمَ له ما يزيدُ على حاجةِ ضيوفِهِ من فطائرَ وحلوَى ، وقد أنفذَ ذلك الخاطرَ . ولأولِ مرةٍ

---

(١) الغش (٢) صدع بالأمر : أطاع ونفذ (٣) قدرة

أكل « چو » حتى امتلأتْ مَعِدَتُه ، من أطايبِ الأطعمةِ التى كان يراها ، ولا يعرف إن كانت تُؤكلُ أم توضعُ للزينةِ .

لقد أحسَّ « چو » فوارِقَ المجتمعِ المرةَ القاسيَةَ فى ذلك اليومِ ، فهذا موظَّفٌ صغيرٌ يُقدمُ لأصدقائهِ الأربعةِ فطائرَ وحلوَى بما يكفِى إطعامَه أربعةَ أشهرٍ . يا بؤسَ الرَّجلِ الفقيرِ حينما يُدْرِكُ أنه لا يَجِدُ الخبزَ الذى يدفعُ به المَسْغَبَةَ[1] عن نفسهِ ، بينما يُدْرِكُ أن سِواه تتزاحَمُ أطايبُ الأطعمةِ على مائدتهِ ، فيُتْخَمُ[2] من غيرِ أن يتناولَ شيئاً ؛ لأنه لا يَدْرِى ماذا يأكلُ ، وماذا يُبقِى . . . ! ! !

أظلَمَتِ الدُّنيا فى عينَىْ « چو » ، وضاقت سبُلُ الارتزاقِ فى وجههِ ، وصار ينتقِلُ بينَ أحياءِ « لَندنَ » فزِعاً مهموماً يبحثُ عن عمل ، ولكنه لا يَدرِى ماذا يعملُ ؛ فهو لم يَتعلمْ صناعةً تُدِرُّ عليهِ أخْلافاً[3] من الرِّزْقِ ، ولم يوهَبْ تفكيرًا سليماً يكفُلُ له الوصولَ إلى ما يريدُ . لقد بات طَريداً مُشرَّداً تُلِحُّ عليه بَطنُه بالعملِ ، ويأمرُه الشُّرَطُ بالسيرِ ، وينَصَحُ له كلٌّ من يَسْتجديه بالعملِ . وأخيرًا تنوء قدماه بحملِهِ فيسقط على الأرض من جُوعٍ ومن إعْيـاءٍ بالقربِ من الـكوخِ القذِرِ الذى يَقضى فيه ليلَه ، فيراهُ بعضُ الصِّبيةِ من

---

(١) المسغبة : المجاعة (٢) تمتلئُ بطنه لدرجة المضايقة (٣) جمع خَلَف وهو ما استخلفتَـه من الشيء

أبناء ذلك الحيِّ ، فيجتمعون حولَه ، ويُبصِرونَه وهو مُصفَرُّ الوجهِ ، مُتصلِّبُ الأطرافِ ، عديمُ الحركة ، فيفزَعون منه ، ويهرُبون إلى آبائِهم وأمهاتِهم ليُخبروهم بما لَحِقَ « چو » . فيتساءلُ بعضُهم ، ويتضاحَك الآخَرون، بَيْدَ أن شابًّا أخذتْه الشَّفقةُ على «چو» حينما سمِعَ بما حدث له ، فانطلقَ إليهِ وجسَّ نَبْضَهُ ، فأدرَكَ أنه ما زال حيًّا ، فاحتملَه بينَ يدَيْه ، وانطلَق به إلى كوخِه . ثم مضَى إلى منزلِه، وعادَ إليه بقدحٍ من (الشَّاىِ) الممزوجِ بقليلٍ من اللبنِ ، ثم أخذ يَسقيه ذلك الشَّرابَ الدافئَ . وبعدَ أن استعادَ « چو » بعضَ قُوَّتِهِ انصرَفَ الشابُّ من غيرِ أن ينتظرَ كلمةً يشكرُه بها « چو » على ما قدَّمَ من فَضلٍ ، لأنه يُدرِكُ أن هذا من أهمِّ واجباته .

عاد الأملُ فى الحياةِ إلى « چو » بعد أن وجدَ إلى جوارِه ما يُساوى ثلاثةَ دراهمَ تركها ذلك الشابُّ عمدًا عند انصرافِه . ولكنْ هل تنفعُ الدراهمُ الثلاثةُ رَجُلاً لا عملَ له ، ولَيسَ له مَوردُ رزقٍ يُدِرُّ عليه مالاً يَعيشُ من ورائه ؟ لقد انحدرَ فى اليوم الثانى الدرهمُ الثالثُ إلى جيبِ بائعِ الخبزِ ، وطفِقَ « چو » يعدو فى

الشوارعِ هائماً على وجهه ، يمتدُّ بصرُه الحائرُ إلى الطريقِ ؛ كأنما يبحثُ عن شيءٍ فُقِدَ منه ، وعَهْدُ الجميعِ به أنه لا يَملِكُ شيئاً تمتدُّ إليه يدُ سارقٍ فيتعَقبُه ويبحثُ عنه . فويلٌ للفقيرِ حين يقسو به الإنسان . إن « چو » فى الحقِّ يبحثُ عن عقْلِه الذى ضيَّعَهُ الفقرُ وألمُ الجوعِ ، واجتماعُ الهمومِ ، وسوءُ الحظِّ .

عرَفَ « چو » من قبلُ عجوزاً فقيرةً ، فكان يقومُ لها بقضاء ما تحتاجُ إليه نظيرَ أجرٍ تافهٍ[1] هو بعضُ لُقيماتٍ مما تَعافُه[2] نفسُها . وكان يُدركُ أن تلك المرأةَ أحسنُ منه حالاً ؛ فإن هناك سيدةً مُحسنةً ، تزورُها الفَينةَ[3] بعد الفينةِ ، وتتركُ لها بعضَ المالِ ، لتستعينَ به على الحياة . وبينما كان سائراً فى طريقِه يَعدُو إذ أبصرَ تلك العجوزَ تسير على ثلاثٍ[4] محدَوْدبةَ الظهرِ ، فما إن رأته على حالهِ هذه حتى نادَتْه ، فأقبلَ عليها وقال : « إننى جائع » . فألقَتْ إليه لُقمةً فالتَهمها[5] ، ثم سقطَ على الأرضِ، وهو يرتعدُ من شدةِ البردِ .

وبينما كانت العجوزُ تفكرُ فيما تفعلُ لذلك التائهِ المسكينِ جاءت

---

(١) حقير (٢) تكرهه (٣) الحين بعد الحين
(٤) الثلاث : قدماها وعصاها (٥) التهمها : ابتلعها بمرة

السيدةُ المحسنةُ لزيارتها ، وأبصرَت « چو » على حالهِ هذه ، فأمرت خادمَها باستدعاء الحوذيِّ ، وكلَّفتْه أن يَحملَه إلى مركبتها وينطلقَ إلى المنزلِ بعد أن يُعرِّجَ على طبيبها الخاصِّ ؛ لِيُسعِفَ المِسكينَ بالعلاج . فأسْعَفه الطبيب ثم أُخِذ إلى قصر تلك السيدة الكريمة .

فتَح « چو » عينيْه فألْفَى[١] نفسَه ينامُ على فراشٍ وثيرٍ[٢] فى حجرةٍ مضاءةٍ ، وإلى جوارِه وعاءٌ مملوءٌ بالَحسَاءِ ، فحسِبَ نفسَه فى حُلْمٍ[٣] ، فجَسَّ أعضاءه حتى اقتنع بأنه فى حقيقةٍ لا فى خيالٍ ، ولا حُلْمٍ . فتجرَّع الْحسَاءَ عن آخرِه ، ثم أدركَ أنه لن يستطيعَ البقاءَ فى ذلك الجوِّ الذى لم يُخْلَقْ لمثله ، فغادرَ الفراشَ وانطلقَ يَعدُو إلى الشارعِ ، ولم يَدْرِ ما حَلَّ به . غيرَ أنه وجد نفسَه بعدَ أيامٍ فى إِحدى المصَحاتِ يُعالَجُ من حُمى شديدة أصابته فى الأمعاء وكادت تقضى عليه .

وقبل أن يَتِمَّ برؤُه لَفَظه[٤] المستشفَى ، فاحتضَنتْه الشوارع يَذْرعُها[٥] كما كان يفعلُ من قبلُ ، وأبصرَ به طبيبٌ سائرٌ فى الطريق ، وأدركَ أنه مريضٌ ، فأقبلَ عليه وجَسَّ نبضَه ، ثم مدَّ إليه يده

---

(١) وجَد (٢) ممهد ، مريح
(٣) الحُلم بضم اللام وسكونها : ما يراه النائم (٤) رماه (٥) يقيسها

ليتوكأ عليها ، وطلَب منه أن يتبَعَه إلى داره وهناك أمرَ خادمَه ، أن يهيِّئَ الحمامَ لذلك المسكينِ ليغتَسِلَ ، ويُعِدَّ له ثياباً نظيفةً ، ففعل . وبات « چو » ليلتَهُ هادئاً مستريحاً .

وبعد أيامٍ كان الطبيبُ جالساً بالقرب من سرير « چو » ، فقام هذا من فِراشِه وهو فى شدةِ المرضِ ، وحاولَ مُغادرةَ الفراشِ ، فقال له الطبيبُ : « اِبقَ فى مكانِك ! ماذا تريدُ ؟ »

فقال « چو » : « إِنى أريدُ الذَّهابَ إلى المقبَرةِ . إِنى أريدُ اللحاقَ بصديقى الذى جمَعَتْنى به أواصِرُ[1] المحبةِ والوفاء . إِنى أتوقُ[2] لرؤيتهِ ، وأريدُ أن أنامَ بجواره . لقـد مَضى على فِراقِنا أمدٌ طويلٌ ، وكانَ من الواجبِ ألاَّ نفترقَ . لقد استراح وخلَّفنى لأشقَى . إِنى أعيشُ هنا وحيداً ، وهو يعيشُ هناك وحيداً ، فيجبُ أن نجتمعَ ليَسْتأنِسَ كلٌّ منا بصاحبِه .

فقال الطبيب لچـو : « نَمْ وستكون إلى جوارِه فى الوقت الملائم . . . »

فقال له : « أتعِدُنى بدفنِى معه ؟ »

فقال الطبيبُ : « لك علىَّ هذا » .

---

(١) جمع آصرة وهى الرَّحم والقرابة والمِنَّة (٢) أشتاق

فقال (چو): «سيِّدى ، هناك بقعةٌ طاهرةٌ من الأرضِ اعتدتُ أن أنظِّفَها وأنثُرَ الرياحينَ فوقَ أرضِها ، وأُرْوِىَ جَدَثَها[1] بدموعى . آه . . . إنَّ الدنيا مُظلمةٌ فى عينى . . . أين النورُ ؟ أين هو . . ؟ »

الطبيب : « إنَّ النورَ آتٍ سريعاً . » ثم ساد الصَّمتُ وخَيَّمتْ على المكانِ الرهبةُ والسكونُ ، ثم قال الطبيبُ « لچو » :
(چو ، چو ،) كيف أنت أيها المسكين ؟ »

فقال (چو) : « إننى هنا أسمعُك . »

الطبيب : « أتستطيع أن تُردِّدَ ما أقولُ ؟ »

چو : « نعم : نعم . . إننى وسط الظلامِ الدامسِ أحِسُّ عَطفَك ، وأُدرِكُ رِعايتَك . »

الطبيب : « قل « الله . »

چو : « نعم . نعم . « الله القادرُ على كلِّ شىء يا سيدى . »

الطبيب : « الله مالكُ السمواتِ والأرضِ »

چو : « الله مالكُ السمواتِ والأرضِ . أينَ النورُ يا سيدى؟ »

الطبيب : النورُ قريبٌ جدًّا . والبَقاءُ للهِ .

---

(١) الجَدَث بفتحتين : القبر ، وجمعه أجدُث وأجدات

أمسكَ الطبيبُ عن الكلامِ ، وصَمَتَ[١] (چو) إلى الأبدِ .
لقد أسبغَ عليه النورُ نعيمَه . لقد انتقل من عالمِ الشرورِ والآثامِ .
لقد ودَّع تلك الحياةَ الفانيةَ وهو يُفكرُ فى رحمةِ ربِّه التى وَسِعت
كلَّ شيء ، وفى ذلك الصديقِ المخلصِ الذى سيلقاه عما قريبٍ ،
وفى هذا الطبيبِ الذى لم يَشَأْ أن يَتركَهُ ليودِّعَ العالَمَ وهو حاقدٌ
ناقمٌ على جميعِ بَنيه .

(١) سكت

القصة الثالثة
بُولْ دُمْبي الصغير
أو الأمل الضائع

كانَ « دُمبي » الصَّغيرُ ابناً لتاجرٍ مُوسِرٍ ، وَاسِعِ النِّعمةِ ، وَافِرِ الثَّرَاءِ ، بَيْدَ أنَّهُ كانَ جافَّ الطَّبعِ ، بَارِدَ الشُّعورِ ، تَمَنَّى مُذْ تزوَّجَ أن يُعْقِبَ وَلدًا يَخلفهُ فى تِجَارَتِه التى شَغَلتْ فِكرَهُ كلَّ عُمْرِهِ ؛ لأنَّهَا أعْظَمُ شىءٍ لَدَيْهِ فى الوُجُودِ . وليْسَ بِعَجيبٍ أنْ يُؤَمِّلَ خلفاً يُشرِكُه معَه فى عمَلِه ، ويَحمِلُ اسْمَه بعْدَه ، دُون أن يُبادِلَه الحُبَّ .

بدَت دلائلُ رَغبتِهِ جَلِيَّةً ، فعَنْوَنَ قائِمَةَ المَتجَرِ باسْمِ « دُمْبي وولده » ؛ تفاؤُلاً بتَحقق طَلِبَته . وقد اقْتضَتِ العناية الإلهية أن يُجابَ نداؤُه ، فكادَ يطيرُ سُرورًا وطرباً بهذا المولودِ السَّعِيد ، الَّذِى عَقَد عليه الأملَ الباسِمَ ، والمستقبَلَ الزَّاهِرَ . وكانَ لِمَقْدَمِهِ رَنةُ فرحٍ تجَاوَبتْ أصْداؤها بَيْن جوانبِ نَفْسِه ، فأقامَ لذلك ما أقامَ من شعائرِ الترحيبِ الكريمِ ، والحفاوَةِ البالغةِ .

ماتَت والدةُ « بُول » إثْرَ وِلَادتِهِ — ولكنَّ مَوْتَها لم يُحرِّكْ فى الزَّوْجِ لواعجَ الأسَى . وماذا يَعْنيه ما دامَ الموتُ قد تجاوزَهُ ،

فتركَهُ حيًّا يَرْعَى فتَاهُ ويتعهدُ شُئُونَه — على أنَّها قد تركتْ بجوارِ طِفْلِها ابنةً جميلةً تُدْعَى « فلُورَانْسَ » عمرُها ستُّ سنَواتٍ . لم يَحِنَّ إليها قَلْبُ أبيها ، ولم يَغْمُرْها بعَطْفِه ، حتى لقد أوشكَ أن يتجاهلَ معرفتَها إذا قابلَها فى الطَّريقِ ؛ ظَنًّا منهُ أنّ الفتاةَ لا تفيدُه وشركَتَه ؟

فقدَتْ « فلورانسُ » حنَانَ الأبِ ، وشفَقَةَ الوالدِ الرحيمِ ، فظلَّت تَبْكِى أمَّها الرَّءومَ[1] وهى فى عُزلتِها ، من غيرِ أن تجدَ مَنْ يَرْحَمُ فؤادَها الحزينَ ، وقلبَها الكظيمَ[2] .

وبعْدَ أشهرٍ قلائلَ اشتَدَّتْ مفاصلُ الصَّبيِّ ، ونَما عودُه واستَوى . وحينَما بدأ يعرِفُ منْ حوْلَهُ ، لم يُحِبَّ أحدًا حُبه لأختِه « فلُورانس » ؛ فقد كان يبتسِمُ لها ابتسامةَ الطُّفولَةِ البريئةِ ، ويَمُدُّ إليها ذِراعيْه مُرَحِّبًا — وملائكةُ الرَّحمةِ ترَفرِفُ عليه حِرْصًا من كَيْدِ الحاسدينَ — كُلَّما شاهَدَها مُقبِلةً صَوْبهُ . ولا غرابةَ ؛ ففِى وُدِّ أخيها لَمسَتْ كلَّ ما يُعزِّيها فى وَحْدَتِها الموحِشةِ ، واعْتاضَتْ به عَن بِرِّ أبيها

---

(١) الرءومُ : كثيرة العطف (٢) الكَظم : الحزن الشديد ، وقلب كظيم : شديد الحزن

المتعَسِّف[١] ، فكانت تداعِبُه فى أوْقاتِ فَراغِها ، وتقوم بخِدْمتهِ غيرَ مُكْتَرِثةٍ لِما يَعتريها من نَصَبٍ[٢] . ولما بلغَ السِّنَّ الملائمَةَ أُخِذ إلى الكنيسةِ ، وتَسَمَّى باسمِ أبيه « بول دُمبِى » فى حَفْلٍ عظيم أقامهُ له ، وفيه نالَ إعجابَ الحاضرينَ صورةً وجمالاً .

وفى ذلك اليومِ تَملّكَ الطفلَ بَرْدٌ شديدٌ ، أخذَ يتزايَدُ يوماً بعْدَ يومٍ ، حتى ضَعُفَ جسمُه ، ووَهَنَتْ[٣] قُوَّته ، واصفرَّ وجْهُه ، فأصْبح مُعَرَّضاً لأمراضِ الحَصْبة والجُدرىِّ والسُّعال الدِّيكى ، كما قالتْ مُرَبِّيَتُه « ريشارْدز » . وكلما تَخلَّصَ من مرضٍ انقَضَّ عليه مرَضٌ آخرُ . وكلما ظهرَت له سِنٌّ أصابَتْه نوبةٌ من النَّوْباتِ .

ورَغْمَ ما أصابهُ من نُحول[٤] — وهو لا يزالُ صَبِيًّا لم يَتجاوز السادسةَ من عُمره — فإن مَسحةَ[٥] الجمالِ ما انفكّت مطبوعةً على مُحيّاهُ[٦] ، وبشاشةَ الوجْهِ لم تُفارِقْه لحظةً ، والسرورَ بادٍ عليه كلَّ حين ، ولا سيّما عندَ ما يَلعَبُ هوَ وأختُه فى حُجْرتهما الخاصّةِ ، ولكن كانت تظهرُ عليه آثارُ الجهد والعناءِ . ومن دَواعِى العَجبِ وإثارةِ الدَّهْشةِ رؤيتُه كالكبارِ ، يفعلُ كما يَفعلون ،

---

(١) السيئ الخُلُق ، القاسى فى معاملته (٢) النصَب : التعب (٣) ضعفت
(٤) النحول : الهُزال (٥) يقال على فلان مَسحة من جمال أى شىء منه (٦) وجهه

ويتكلمُ كما يَتكلمون، وهو بين براثن الموْتِ ومخالِب الوباء[1] السَّامِّ، مِمَّا حَطَّم قلْبَ مُرَبِّيتهِ التى وَدَّت لو يكون طِفلاً يَتذوَّقُ[2] حلاوَةَ الطُّفولةِ، ويَتمتعُ بجمالها، فيلْعَبُ كما يلْعَبُ الصِّغارُ، ويتحدَّثُ كما يتحدَّثونَ.

وقد اعْتادَ أبوه أن يأخذَه بعد الغَدَاء، ويُجلِسَه على كُرْسيِّه، يُحاذِبُه أطرافَ الحديثِ، فكانا يَتَّفِقان أحْيانًا، ويَختلِفَانِ أحيانا. وذاتَ يَوْمٍ بَينما كان الابنُ فى جِلسةٍ كعادَتِهِ سأَلَ أباه: « ما النُّقودُ يا أَبتَاهُ؟ »

الأب — « هِيَ الذهَبُ والفِضَّةُ والنُّحاسُ يا بُنيَّ. إنَّك تعرفُ مَعنى النُّقودِ يا (پول)! »

الابن — « نَعمْ، ولكن ما فائدتُها؟ »

فأجابَ الأبُ — وقد أمْسكَ بِيَدَيْ طِفلهِ الصغيرِ يَعبَثُ بهما: « بالنُّقودِ تصلُ إلى ما تريدُ يا بُنيَّ العزيز. »

فسحبَ « پُول » يَدَيْه برِفْق، وهوَ يقولُ بصَوْت خانِقٍ تَبدو فى مقَاطِعهِ آياتُ الأَسَى[3] والجزعِ: « ولكنها لم تَسْتطعْ إنقاذَ

---

(١) مرض عام (٢) يتذوقها: يذوقها شيئاً بعد شيء (٣) الأسى: الحزن

أُمِّي لِتَبقَى حيَّةً تَمنَحُنى حَنانَها وعَطفَها ، ولم تستطِعْ أن تهبَنِى الصحةَ والقُوَّةَ والنُّموَّ لِتَتِمَّ سَعادَتِى . »

فلم يَسَع الأَبَ إلاّ أن يَبعثَ الأملَ فى نفس ابنهِ المُتَقَوِّضَةِ ، ويُعيدَ إليهِ بالإيحاء ما ذَوَى[1] من صحته وقوَّته ، وما ذَبُلَ من زَهْرَةِ طفولتهِ : « دَعْ عنكَ هذا الوهْمَ يا « بُول » ؛ فإنكَ قَوِيُّ البِنْيةِ[2] ، سليمُ البدَنِ كغَيرك من الأَطْفال . »

فردَّدَ الصَّبِيُّ الصوْتَ وهوَ يَتأَوَّهُ ويَزْفِرُ : « لا يا أبى ؛ حِينما كانت « فُلورَانسُ » صغيرةً وفى مِثْل سِنِّى ، لم تلْقَ الذى لاقيتُ ؛ من تعَبٍ بعد لَعِبٍ قليل ، وضَعْفٍ يَسْرى فى أَعْضائِى سَريانَ الدَّمِ فى الشَّرايينِ ، مما أَقْعدَنى وحرَمنى لذَّةَ التَّمَتُّعِ بما يَرْغَبُ فيه أَمْثَالِى من اللَّعِبِ . »

استَولَى القلَقُ على الأبِ ، وبَرِقَ[3] بَصرُهُ ، وأخذَت الحَيْرةُ منه كلَّ مأْخَذٍ . فكُنتَ تَرَاهُ مشْدوهاً[4] فاقدَ اللُّبِّ[5] ، فأَرْسَل إلى أُخْتهِ يَستشيرُها فى أَمْرِ « بُول » ثم استَدْعَى الطبيبَ لِعيادتِهِ ، فأَتَى عَلَى عَجَلٍ ، وفحصَ عَن المَرِيضِ فحصاً دقيقاً ، عرَفَ مِنْه عِلَّةَ

---

(١) ذوَى : ذبُل (٢) البنية : الفطرة ، الجسم (٣) تحيَّر فلم يَطرِف
(٤) مدهوشا ، متحيراً (٥) العقل

الدَّاءِ ، ووقفَ على الدَّواءِ فقال : إنَّ جسمَ الطِّفلِ أَهْيَفُ[1] لاَ يُناسِب سِنَّهُ ، وعقلَه أكبرُ من جَسدِه . إنَّهُ يُفكِّرُ تفكيرِ الرِّجالِ ، ويبدُو عليه الهَمُّ والقَلَقُ ، فى وقتٍ يحتاجُ فيه إلى كثيرٍ من المرَحِ واللَّعِبِ ؛ ولِذا يَحْتاجُ إلى تغييرِ الهَوَاءِ عَلَى قُربٍ من ساحِلِ البَحْرِ ؛ فإنَّ نَسيمَ البَحْرِ يُفيدُ الأطفالَ أجلَّ فائدةٍ . »

وافَقَ الأَبُ على سَفرِ ابنِهِ ومُهْجة نَفْسِهِ ، تَصْحَبه أختُه والمربِّيَةُ ؛ إجابةً لرغْبةِ الطبيبِ النِّطاسِيِّ ، وأملاً فى استِشفاءِ طفلِهِ العزيزِ ، إلى « بَرايْتُون » — وهيَ مدينةٌ بَحْرِيةٌ تبعُدُ ساعةً عَنْ « لَنْدَنَ » — فاختِيرتْ مصَحَّةٌ جميلةٌ ، حسنةُ الموْقع ، كاملةُ الأدَواتِ ، نزَلوا بها ، تديرُها سيِّدةٌ شَمْطاءُ[2] ، عابسةُ الوَجهِ ، بارزةُ الأنفِ ، جاحِظةُ[3] العيْنين ، تُدْعَى السيدة (پِنْكِين) . وكان يَعيشُ لديْها فى ذلك الوقتِ طفْلانِ أخَوان : فتاةٌ ذاتُ جمالٍ ، شابَ مُقلتَيْها زُرقةٌ ؛ وغلامٌ تَدُلُّ حَرَكاتُه على ما فى نَفْسِهِ من حُرقةِ الجوَى[4] ، ولوْعَة الوجْدِ الدفين ، فكثيراً ما سَأَلَ « فلُورانسَ » بصَوتٍ باكٍ ، عَن الطَّريقِ الَّذِى يُوصِّله إلى الهِند ، حيثُ يقيمُ أبواه .

---

(١) ضامر . (٢) شعرُ رأسها أبيض يخالطه سواد . (٣) يُقال جحظتْ عينُه أى عظمت مقلتها ونتأت . (٤) الحزن .

هاجتْ بَلابلُ الرَّجُلِ ، وثَارتْ خواطرُه ، فأصْبح لا يُرَى إلا مُكتَئِباً حزيناً ، من أجل وارثِهِ وفِلذةِ(١) كبدِه ؛ فقد استْهام به قلبُه ، وسهِدَ(٢) له جَفْنُه، فلم يَزُرِ الكَرَى(٣) مُقلتَيه ؛ تعلُّقاً بفتاهُ ، وشغفاً بحُبِّه . ولَوْ أنهُ ما زَالَ غيرَ مُكترثٍ لِا بنته المِسْكينة ، يَحرِمُها أَلْطاف(٤) بِرِّه ، ويَحولُ بينها وَبيْنَ عاطفَةِ الأبوَّة الكريمةِ الَّتى ترعاها بالَحنان ، وتَكلؤُها بالْعطْف والإحْسانِ ، فَضْلاً عمَّا كان يتاجَّجُ فى صَدره من لَظَى(٥) الْغَيْرةِ وَنارِ الْحِقدِ كلَّما رأى ابْنَه يَخْطُبُ وُدَّ أُخْته أَكثرَ مِنهُ ؛ فقدكَان يتمنَّى أن يَفوزَ بتِلك المنزِلَةِ الَّتى نالتْها « فلورَانسُ » من اخِيها . ولكنَّ هذا لمَ يؤثِّرْ فى نفس الأبِ ، فأخذَ يعودُ طفلَهُ مَرةً كلَّ أُسبوعٍ فى « بَرايتُون » حيْثُ يُعالَجُ ، ثم يَستصحبُ وَلَديْه إلى الفُنْدق النَّازِلِ بهِ ، من السَّبتِ إلى الاثنين ؛ ليقِفَ عَلَى قَدرِ ما آلَ إِلَيْه الملاجُ من نَجاحٍ ، وما نَعِمَ به « بُول » من تَحسُّنٍ فى صِحَّته . وذاتَ مرَّةٍ قالَتْ صاحِبَة المصَحَّة للطفلِ : « أتُحِبُّنى أيُّها الطفلُ العزيزُ ؟ »

فأجابَ وهُو يهزُّ رأسَه : « إِنِّى لا أُحِبُّكِ ؛ بلْ أَوَدُّ أَنْ أَرحلَ من بيتِكِ ؛ لأنِّى أَكرَهُ الإقامةَ فِيه . » ومع نفورِه من لُقياها

---

(١) قطعة من كبده . (٢) السُّهاد : الأرَق ، وبابه طرب . (٣) الكرى : النعاس . (٤) ألطفه بكذا : بَرَّه به واللطفة : الهدية . (٥) نار .

كانَ يَجلِسُ على أَرِيكَتِهِ ويُصَوِّبُ إليْها نظَرَهُ مِثْلما يفعلُ معَ والدِه بالمنْزِلِ .

مَضتْ بعدَ ذلك عِدَّةُ أسَابِيعَ تحسَّنتْ فيها صِحَّةُ « بُول » عنْ ذِي قبل ، غيرَ أن التَّحسُّنَ لم يَبْلُغْ شَأْوَه ؛ فإنَّ الطِّفلَ ما زالَ ضَعيفاً لا يقدِرُ عَلَى مُتابعةِ السَّيرِ . ولِذَا أُعِدت لَهُ عجلةٌ صغيرةٌ يَدْفَعها شيخٌ — بَلَغ من الكبَرِ عِتِيًّا[1] ، قد ألِفَهُ واطمَأَنَّ إلى حَديثهِ — كلَّ يَوْم إلى شَاطئِ البحْرِ كي يقضِيَ سَحابَةَ النهارِ أَمامَ أمواجِهِ المصطخِبَةِ المتلاطمَةِ ، وعُبابِهِ[2] السَّاخِرِ المُتدفِّق ، مُتَمتِّعاً بالْهوَاءِ البَليلِ ، والنَّسيمِ العليلِ ، يَرمُق[3] الأطفالَ بنظَراتهِ وهم يَلعبون ويَستحِمُّونَ ، ويَتَسامرونَ تحتَ المِظلاتِ ، وقد انبسطَ ضوءُ الشمسِ فوْقَ أديمِ الأرْضِ الصَّفراءِ .

ولشَدَّ ما كانَ يُعْجِبه هذا المنظرُ ويَميلُ إلى مُشارَكتِهم . ولكن أَنى له ذلك وهُو لا يَقْدِرُ على القِيام ؟ فاقْتنع بجُوَارِ أُختِهِ التي آثرَ رُفقتَها دون سِواهَا ، تَقْرأُ له القِصصَ وتحدِّثُ إليها ، تحتَ أَطباقِ ذلك الجْوِّ الجميـلِ ، وفي رِحابِ[4] ذلك الهُدوءِ

(١) عَتَـا الشيخ عتِيًّا : أسَنَّ وكبرَ . (٢) الموج (٣) رمقه : نظر إليه
(٤) الرحْبة : الساحة المنبسطة أمام المسجد ، والجمع رِحاب ، والمعنى فى ساحة الهدوء الفسيحة

الشاملِ ، وفى كنَفِ تلكَ الطبيعةِ السّاحرةِ التى تَخْلُبُ الألْباب ، وتأخذ بِمجامعِ القُلوبِ .

وذَاتَ يَوْمٍ بينما كانَ الفَتَى معَ شقيقتِه فى جِلسةٍ هادئةٍ ، ابتدرَهَا مُحدِّثاً : « إنّى أهيمُ بك حُبًّا يا أُختِى ! وثِقِى بأَنّى سَأَمُوتُ لو ذهَبْتِ إلى الهنْدِ كأُخْتِ ذلك الصَّبِيِّ . »

فأمالَتْ « فلُورانسُ » رأسَها إليهِ ، وهمَسَتْ فى أُذُنهِ : « إننى لَنْ أفارقَكَ لحظَةً مدَى الحياةِ. ويَسُرُّنى أن أراكَ موفورَ[1] الصِّحَّةِ ، قوىَّ البِنيةِ ، مُعافًى فى بدَنك ؛ لِنكونَ معاً تُواسِينِى وأُواسِيكَ فى هذهِ الحياةِ . »

فقال « پُول »: « نعَمْ ؛ إنِى أُقَدِّرُ شُعورَكِ نَحْوى أَيَّتُها الأختُ العزيزةُ ! وإنَّ صِحَّتِى فى تقَدُّمٍ . اسْمعِى يا (فلُور)! ماذا يقول البَحْرُ ؟ »

فلور : إنّه لا يقولُ شيئًا يا عزيزى ! ولـكنَّ تَلاطُمَ الأمواجِ يُحْدِثُ ذَلك الصَّوتَ الَّذى تَسْمَعُه . »

پول : « نَعم ؛ ولـكِنَّ الأمواجَ تقولُ شيئاً ، وتقولُه دائِماً .

وسرْعانَ ما حَوَّلَ مجرَى كلامِه وقال : « ما المكانُ الّذى أراهُ بَعيداً يا (فلُور) ؟ »

---

(١) تام

فلور : « إنّه بلدةٌ أُخْرى . »

واستَمرَّ يتكلَّمُ مع شقيقتِه ، ولكنَّه كثيرًا ما قطعَ اتِّصالَ الحديثِ ؛ ليُصْغِيَ إلى أمْواجِ البَحْرِ ، ويَنظرَ إلى المكانِ النَّائِي .

وبعْدَ أن مَكثَ فى « برايتون » زُهاء سنَةٍ تحسَّنَتْ صحتُهُ قليلا ؛ غيرَ أنه لم يَزَلْ على فُتُوره ونحافتِه ، هزيلَ الجِسْمِ ، ضَيِّقَ الصَّدْرِ ، يتعَبُ لِأَقَلِّ شيءٍ . وفى بَعْضِ زِياراتِ أَبيه الأُسْبُوعيَّةِ خاطَبَ صاحِبةَ المصَحَّةِ مُسْتَفسِرًا : « كيفَ حالُ ولدِى أيَّتُها السيدةُ ؟

فقالت : إنِّى أشْعُرُ بِتَقَدُّمِه يَوْمًا بعْدَ يومٍ . »

الأب : حَقًّا إنَّهُ فى تَحَسُّنٍ ، ولكنَّهُ يحتاجُ إلى سنَواتٍ عَشْرٍ ؛ بل أكثرَ حتى يَصِحَّ ويَسْتَجِمَّ قُواهُ . »

وأخذَ أبُوه يقولُ — والأسفُ مِلْءِ جَنَانِه — إنّ ضَعفَه سَوْفَ يُؤخِّرُ دِراستَهُ ، ورُبَّما قضَى عَلَى مُسْتَقْبلِه، مع أنّه الوارثُ الأكبرُ لشركةِ « دُمبي وولده » .

اتَّفق السيد « دُمْبِي » مع « الدكتور بلمْبَر » أن يُلْحِقَ ابْنَه بالقِسْمِ الدَّاخِلِيِّ من مدرستِهِ ، التى تقرُبُ من المصَحَّةِ ، على أن

تَبقَى « فلورانسُ » تحتَ عِنايةِ السيِّدةِ « پيكِين » صاحبةِ المصَحَّةِ ، للإشرافِ على أخيها ، وزِيارَتِه مرَّةً كلَّ أُسبوعٍ .

كانت مدرسةُ « الدكتور بلمْبَر » تُؤْثِرُ هذا النَمطَ⁽¹⁾ من التربيةِ التى تُعنَى بحَشْوِ المعْلوماتِ فى أدْمِغَةِ التلاميذِ ، من غَيرِ نظَرٍ إلى ما يُلائِمُ سِنَّهُم ، ويوَافِقُ استعْدَادَهم ؛ إذ كان المشهورُ عن « الدكتور بلمْبَر » أنهُ يستطيعُ أن ينهَضَ بالتلميذِ أيًّا كانت مَقْدِرَتُه العقليةُ ، وأن يُكوِّنَ منهُ رَجُلاً فى وقْتٍ قصيرٍ ؛ ولذا وَعدَ بأنه سَيُكوِّنُ مِنْ « پُول » رَجلاً فى أدْنى فُرصةٍ مُمكنةٍ ، وأَقلِّ زمنٍ مُستطاعٍ .

عندَ ذلك سأَلَ الأَبُ ابنَهُ : « أَتُحِبُّ أن يُكوَّنَ منك رجلٌ ، وأن تُعامَلَ كرَجُلٍ يا بُنيَّ ؟ »

الابن : « إنى أُفَضِّلُ أن أكونَ طِفلاً ، وأن أعامَلَ كطفلٍ ، وأَوَدُّ أن أمكُثَ مع أُخْتى فلُوى . »

تركَ « پُول » المصَحَّةَ وبدأَ حياتهُ المدرسيةَ ، فاختَصَّت بتَعليمِهِ الآنسةُ « بلمْبَر » ابنةُ (الدكْتور) وتُدعى « كورْنِليا » وهى مُدرِّسةٌ مُثقَّفةٌ تلبَسُ مِنْظارًا ، ولا تَعرِفُ كثيراً ولا قليلاً عن نَفْسيَّةِ

---

(١) النمط بفتحتين : الجماعة من الناس أمرهم واحد ، ثم أطلق اصطلاحا على الصنف والنوع

الأطفالِ، ومُيولِهم وغرائزِهم؛ ولا تفهمُ ما يُلائمُهم وما لا يُلائمهم، فكانت تُرهِقُه وتحشُو ذِهنَه بمُختلفِ العُلومِ مِنْ بَدْءِ اليومِ حتى نِهايتِه. فأخذَ يَئِنُّ من كثرةِ الدُّرُوس التى لمْ يَستَطِعْ لهَا فهمًا، ولم يَذُق لها طعما. وبدأَ يشكُو الصُّداعَ وضَعفَ الرِّجْلَين. ورجَع إلى ما كانَ عَليْهِ من نُحولِ الجِسْم، وشُحوبِ الوجهِ. وصارَ كرَجُلٍ هَرِمٍ حطَّمَهُ الدَّهرُ، وأفْنَاهُ الزمنُ، وامتدَّتْ إليْه يدُ البِلَى. إزاءَ ذَلك لمْ يجد الناسُ بُدًّا مِنْ دُعائِه باسْمِ «الرجلِ الهرِم» بحَسَبِ ما تَراءى لهُمْ، مع رِقَّةِ مُعامَلتِه، واحترامِه الصَّغيرَ والكبيرَ، وإحسانِه إلى الغَنيِّ والفقيرِ، وعَطفِهِ على الطَّيْرِ والحَيَوانِ، ممَّا قرَّبَ إليهِ الأنفُسَ، وحبَّبَ فيهِ الأرْوَاحَ، فرثَتْ لحالِه، وبكَتْ سوءَ مآلِه.

لمْ يَقِفْ أمرُ صاحبِ المدرسةِ عِنْدَ هـذهِ الغَايةِ؛ بل أوْصَى ابْنَتَهُ «كورْنِليا» أنْ تبْذلَ جُهْدَها فى حَشْوِ عَقْلِهِ بِكلِّ ما يُستطاعُ مِنْ موادَّ، طارحًا العِنايةَ بجِسْمِهِ ومُراعاةَ سِنِّهِ وَراءَهُ ظِهْرِيًّا. فعمِلَت بِوَصِيَّةِ أبيها، ولمْ تُقَصِّرْ فى تَحْقيقِ رَغْبَتِهِ، وَلكِنَّ «فلورانسَ» لحظَت على أخِيها فى أثْناء عِيادتِه شِدَّةَ الاصْفِرار

والضعفِ من العَناء والاجْهادِ ومُواصَلَةِ الدَّرْس . فكانَتْ أُختُهُ تريحُ عقْلَهُ ، وتسَاعِدُه فى إعْدَادِ وَاجبِه الاسْبُوعىِّ ؛ ليَستَعِيدَ نشاطَهُ، ويُقْبِلَ عَلَى استِماعِ الدَّرْسِ بِفُؤادٍ مِلْؤُه الغِبْطَةُ والانْشِراحُ .

وقَد حدثَ ذاتَ يَوْمٍ — بعْدَ انتهاءِ الدِّراسَةِ ، وقبْلَ أن تَبدأَ العُطْلَةُ بأُسْبُوعَيْنِ — أنْ وَضَعَ « بُول » رَأْسَهُ المَكْدُودَ المُتْعَبَ على فَخِذِ أحدِ قُرَنائِه ، ولَمْ يتمكنْ مِنْ رَفْعِه ؛ إذ غَشِيَتْهُ إِغْماءَةٌ أَفقَدَتْهُ رُشْدَهُ ، فَصُبَّ عَلَيْه الماءُ لِيُفيقَ ويَرْجعَ إليْهِ صَوابُهُ . ولأَوَّلِ وَهْلَةٍ — وقْتَمَا أفاقَ — لَحَظَ أنَّ النَّافِذَةَ مفتوحة ، وأنَّ وجْهَهُ وشَعْرَهُ مُبْتَلَّانِ بالماءِ ، فعرَفَ حقيقَةَ الحَالِ ، ثُمَّ رأى « الدُّكْتُورَ بلِمْبَر » والعريفَ وَاقِفَيْنِ يُحَدِّقانِ[1] بالنَّظَرِ إليْه . وما كادَ يَفتَحُ عيْنَيْهِ حتى فَاجأَهُ « الدكتورُ » مُخَاطِباً :

« كيفَ حالُ صديقِى الصغيرِ الآنَ ؟ »

« إنَّ حالِى حسَنةٌ يا سيِّدى ! ولا يَسَعُنى إلَّا أنْ أُقدِّمَ لكَ جزيلَ شُكْرِى ، ووافِرَ ثَنائِى ، عَلَى ما أَوْلَيْتَنِيه من عَطْفٍ . »

وبَعْد قليلٍ ظهَرتْ أمَامَهُ أرضُ الْحجرةِ تتحَرَّكُ ، وبدَت

(١) حدَّق إليه بالنظرِ تحديقاً : شدَّد النظر إليه .

الْجُدْرانُ كأَنَّها تمايلُ رقْصًا ، ولاحَتْ لهُ رأْسُ « الدُّكتُور » فى ضِعْفِ حجْمِهِ المُعْتَادِ ، وتَرَدَّدَ صَدَى الطَّبِيعَة صَفيرًا فى أُذنِه ، وأظلَمَتِ الدُّنيا فى وجْهِهِ ، فقادهُ رفيقُه الَّذِى أسْنَدَ إِليْه رأسَه إلى غُرْفَةِ نَوْمِهِ ، وساعدَه فى خَلْعِ ملابِسِه برِفْقٍ ولينٍ ، وأرْقَدَهُ عَلَى سَرِيرِهِ بِتُؤَدَةٍ . اسْتُدْعِيَ الطبيبُ فى الحالِ ، فأَتى وفَحَصَ عَنْه ، ثمَّ قالَ : « يجبُ أن يُوقَفَ عن اسْتذكارِ دُروسهِ فى الوقتِ الحاضرِ . »

وبعدَ بِضْعةِ أيَّامٍ استطاعَ أن يَنهَضَ منْ فِراشهِ ويسيرَ فى حديقةِ المدرسةِ . وكان يَعْجَب حينما يجدُ كلَّ مَن رآه يتألم له ، ويُشفِقُ عليه ، ويحبُّه ، ويُحادثه ، ويسألُ عنه . فقابلَ الجميلَ بمثْلهِ ، ولاطف إخوانَهُ برِقَّتهِ المعهودةِ ، وبادَلَهم حُبًّا بِحبٍّ ، وإخلاصاً بإِخلاصٍ ، حتى ذلك الكلب الخَشِنِ الذى عاشَ فى الْحديقةِ اعْتادَ أن يبحثَ عَنْ (بُول) ويَزُورَه ، فيُلاقى منهُ إحْساناً ورِفقاً .

وكانَ مُديرُ المدرَسةِ يُقيمُ كلَّ عامٍ حَفلاً مَسائيًا قبل بَدْء الإجازَةِ السَّنويَّةِ لتلاميذِ مَعهدِهِ ، يَحضُرُه جمعٌ غفيرٌ مِن الناسِ ، فرَغِبَ (بول) فى شُهودِه ؛ لأنَّ أُخْتَهُ « فلورانسَ » ستَكون بينَ

الزائراتِ ، لِترَى عَطْفَ إخوانهِ علَيْه ، وتَعلقَهم به . ثم صَمَّمَ فى مُغادرةِ المدرسة بعد انقِضَاءِ الحَفْل .

وفى المَساءِ تَهافَتَ المَدْعُوُّون على المكانِ ، ومَلئُوا صفوفَ المقاعدِ ، وانتحَى « پُول » ناحيةً ، وجَلسَ على أريكةٍ مُعْتزِلا ، فهَرْوَل إليه رُفقاؤه يُحيُّونَه أطْيبَ تحيةٍ ، ويُبادلُونَه حُبًّا خالصاً مَبْعثهُ التقديرُ والإعْجَابُ ، وحنَانًا كريمًا تُزْجيه الأُخُوّةُ الصادِقة — وهو يَرْقبُ جمالَ « فُلورانسَ » واحترامَ إخوانهِ لها ، وإعجابَهم بكمالِها .

فلمَّا أَسْفرَ الصُّبح ، وأجْفلَت[1] جُيُوش الظلام ، خرجَت الغزالةُ مِنْ سِترِها ، تُرْسِل شُعاعَها مُنيرًا أرْجاءَ البسِيطةِ . هُنالكَ أسرَعَ الطُّلابُ واحتَشدوا على سُلَّمِ المدرسة ، يُودِّعُون صديقَهم وأُخْتَه ، وبوادِرُ الأسف لفُرقَتهما تبدُو على وجوههم ، ودوَافِعُ الحُزْنِ مَاثِلةٌ فِيما يَتحدَّثون . فَشكرَ لَهُمْ « پُول » جميلَ رِعايَتهم ، وحُسْنَ صَنيعهم ، وسارَ بين تَحيةِ الأيْدِى المَرْفوعةِ ، وهو يَفْتَحُ بابَ المركَبَة من حينٍ لآخرَ مُحيِّياً إخوانَه ، حتى وصلَ إلى المصَحَّةِ . فباتَ ليلةً يطلبُ الرَّاحةَ ، ثم استأْنفَ السفرَ

---

(١) أسرع فى الهرب

إلى بَيْتِهِ ، وهناك حُمِل توًّا إلى فِراشِهِ ، وسأل أخْتَه بعد أن استَجْمعَ بَعْضَ قُواه :

« أخْتى ! هل كَان أبى فى فِناء البيت عنْد ما حُمِلْتُ ؟ »

الأخت — « نعَمْ يا عَزيزى ! »

بول — « هلْ بَكى حِينما رآنِى وذهبَ إلى حُجرته الخاصَّةِ ؟ »

فلم تَسْطِع « فلورانسُ » أن تَمْلكَ ما اخْتَفَى فى نفسِها من شُعورٍ يَفيضُ بالألمِ العميقِ، وإحْساسٍ بالْحسْرَةِ والكَمَد، لتُجيبَه، ولكنَّها طأطأَت رأسَها تُحاولُ إخفاءَ وجْهِها وهِىَ تُقبِّلهُ قُبُلاتٍ حارَّةً يُقرأ معْناهَا من بَيْن ثَنيَّاتِ ثغْرِها .

ولمَّا فارَقَهُ السُّهادُ(١) وَزَارَهُ الكَرى(٢) همَسَ : « إنِّى لا أحِبُّ أنْ أسْمعَ أنَّ أبى بكَى . » وظَلَّ رَاقِداً يَوْماً بعْدَ آخرَ، وهو سعيدٌ بحالِهِ ، صبورٌ على بَلْواه ، قانِعٌ برُؤْيةِ « فُلورانسَ » والتَّحَدُّثِ معَها عن أحْلامِهِ التى رَآها فى منامهِ ؛ إذْ كانَ يَحْلُمُ أحيانًا بأنَّ أشِعَّةَ الشَّمْسِ تكْسُو مِياهَ النَّهرِ أبداً . وأحْيانًا يَرى نَفْسَهُ وهو يتنَزَّهُ فى زَوْرقٍ صغيرٍ يسبَحُ فى ماءٍ أبيضَ من اللُّجَيْنِ(٣) ، وقد رَسَا على شاطئٍ بعيدٍ تتعذَّرُ رُؤْياهُ ، ثم شاهدَ

(١) السهاد : الأرَق . (٢) الكرى : النعاس . (٣) اللجين : الفضة

البَحْرَ يبرُق فيَكادُ يَذْهَبُ سَنَا[1] بَرقه بالأبْصَارِ . ولا غرابةَ ؛ فهُوَ الآنَ أقربُ إلى الفَنَاء مِنْه إلى البقَاء .

مَرَّت الأيَّامُ سِرَاعاً و « پُول » يَجدُّ فى خَطْوه إلى حيثُ ينْعَمُ برِضْوَانِ رَبِّه . ولمَّا قارَبَ النَّفَسَ الأخيرَ انْحنَى عَليه أبُوه — وقد ابيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الْحُزْنِ — يَقُول : ولَدَاه ! رحمةً بأبيك المِسكينِ ! ألاَ تَستطيعُ أن تنْظُرَ إلىَّ لِتَشْهدَ حَالِى ؟ »

فارْتَدَّ طَرْفُ الصَّبيِّ وقالَ : « أبى ! لا تَحْزَنْ فإنِّى سَعِيدٌ . أستودعُكَ اللهَ أيُّهـا الوالدُ الشَّفِيقُ علىَّ ، وأوصيك بأختى ، أختِى المسكينةِ ، أختى الوَحدةِ فلورانس . »

ثم أخـذَ يُعالجُ سَكْرَةَ الموتِ ويتكلَّمُ بصوتٍ خافتٍ : (فلوى) ! أُختى ! إنَّ أُمِّى تُشْبِهُكِ ، وأنتِ تُشبهينَها . اقْتَربى مِنِّى لأراها . » وفجأةً سكَتَ ولم يَنْبسْ ببِنْتِ شَفةٍ ؛ إذْ صعِدَتْ رُوحُه إلى بارئِها ، فدَارَت حَوْله هَالةٌ من نُور سَماوِىٍّ ، وتوَّجَتْ جَبِينَهُ الوَضَّاءَ ملائكةُ الرحمةِ ، بين دُمُوعِ الأبِ الذى عَلَّقَ عليه الآمالَ كلَّها ، وَبنَى المسْتقبلَ كُلَّه ، وبَينَ نَحيبِ الأُخْت التى وجَدتْ فِيه خَيْرَ سَلْوَى ، وأحْسَن عَزاءٍ لِفُقْدَانِ أُمِّها .

---

(١) السَّنا : ضوء البَرْق .

القِصّةُ الرّابعة

صانعـــةُ اللُّعَب

أو

من الخيال إلى الحقيقة

بينَ جُدرانِ كُوخٍ صغيرٍ ، تُظلِّلُه سُحُبُ الفقرِ ، فيبدُو حالكَ اللَّونِ ، مُتصدِّعَ البنيانِ ، يَنِمُّ عن حياةِ أهْلِهِ الذين أشْقاهم الزمانُ ، — عَاش الصانعُ « كَالِبْ پلمَر » مع ابنتهِ العمياء « بِرْثَا » عيشةً ساذَجةً ، لا يُعكِّرُ صفوَ حياتِهما ألَمٌ ، ولا يشوبُ عيشهما كَدَرٌ . قنِعَا بما دأبَا فى العملِ فيه ، ورضِيا بما قَسَمَ اللهُ لهُما من رزْقٍ يسيرٍ ، فأخذَا يصْنَعان اللُّعَبَ التى تُدِرُّ عليهما القُوتَ لشركةِ « جرَفْ وَتَكِلْتُون » .

شَعَرَ الأبُ بضآلةِ العيشِ فى كوخِه ، وأدْرَكَ ما فيهِ من ذُلّ وهَوانٍ ، وأحَسَّ ما يُقاسيانه من بؤسٍ بَئيسٍ[1] ، فاعترَتْه

(١) شديد

رَجْفةٌ شديدة كادت تُسلِمُه إلى يأسٍ قاتلٍ يعقبهُ سُوءُ المَصيرِ . ولكن ما لبثَ أنْ سَكَنَ رُوعُهُ(١)، وهدأَ فُؤَادُه المتحيرُ القَلِقُ خوفاً على تلك الزَّهْرَةِ النَّاضِرةِ « بِرثَا » من الذُّبولِ ، وعَلَى رَيْعانِ صِبَاهَا من النُّحول ، لو علمَتْ ما يقاسِيَانِهِ من آلامٍ ، وما يَجْرَعَانِهِ من كُئُوس السَّقام(٢) ؛ بيتٌ داجٍ(٣) يَلتمسان فيه الراحَةَ ، لا يَنفذُ إليه إلا قليلٌ من أشعةِ الضوءِ ، ولا يَهتدى إلى نوافذه إلا قَبَسٌ(٤) من نور، تكاد تَتَلَمَّسُ فيه الُجدْرانُ فلا سبيلَ إلى الوصولِ . وتُطلبُ الأبوابُ فإذا هى صعبةُ المنالِ . كادَتْ أسقفُه تتهدَّمُ ، وكلُّ ما فيه قد امْتَدَّتْ يدُ البلَى إليه ، ونسجَ العنكبُوتُ خيطَهُ عليه ، فأَصْبَحَ باليًا تنصرفُ الأعْيُنُ عن رؤيته ؛ لِمَا صَارَ إليهِ من وَضاعةِ الشَّأنِ ، وحَقَارَةِ القَدْرِ .

أَنِفَ الأبُ أن تَعلَمَ ابنتُهُ حقيقةَ الحالِ ، وتتَبيَّنَ سوءَ المآلِ ، فهداهُ الخيالُ أن يُصَوِّرَ لها العيْشَ فى بيتٍ أنيقٍ ، تُحيط بهِ الأشجارُ الوارفةُ(٥) الظَّليلَة ، ويَحوى أفخرَ الأثاثِ ، وأحْسَنَ الرياشِ ، يَطيبُ المُقامُ فى حُجُراتِهِ ، وتلَذُّ الحياةُ بين جَنَباتِهِ ،

(١) الروع بالضم : القلب والعقل ، وبالفتح الفزع (٢) المرض (٣) مظلم
(٤) القبس : بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص . (٥) الـكثيرة الظل .

قد زُيِّنَت غُرَفُه بتَذكِرات مَخْدومه السيِّدِ « تَكِلْتُون » الذى صوَّرهُ الأبُ لها بأنه رحيمُ القلبِ ، شفيقُ الفُؤادِ ، جميلُ المُحَيَّا(١) ، حسنُ القَوَامِ(٢) ، عفيفُ النفسِ ، رقيقُ العاطفةِ والوِجدان ، نبيلُ الإحساسِ والشُعورِ ، كريمُ الأخلاقِ والطِّباعِ . ولم يَقِفْ بهِ التَّصويرُ عندَ هذا الحدِّ ، بل انتزع من شخصِهِ رَجلاً قَوِىَّ الجِسمِ ، سليمَ البِنْية ، مُكتَمِلَ الصِّحةِ ، قادرًا على أداءِ ما يُعهَدُ به إليه من أعْمالٍ ، ويُكلِّفهُ من وَاجباتٍ ، عَلَى الرغم مِمَّا كانَ فيه من شَيخوخةٍ بالغةٍ ، ابْيَضَّ لها شعرُ رَأسِهِ ، وتقوَّسَ ظهرُه ، وانحنَتْ ضُلوعُه ، وانبرَتْ عظامُه ، حتى أصبحَ هيكلاً بلا رُوحٍ ، وجَسَداً بلا عَظمٍ ، ونَفْسًا تنُوءِ بالأرْزَاءِ(٣) ، وقلباً مُقطَّعَ النِّياطِ(٤) . وفضلاً عما عَانَاهُ من قَسْوةِ الرَّجُلِ الذى يعمَلُ عنده — فقدْ قُدَّ قلبُه من صخرٍ جُلْمُود ، لا يعرفُ الرحمةَ ، والرحمةُ لا تعرفُه ؛ يُحمِّلُه ما لا يُطيق ، ويُثقِلُ كاهلَه بما لا يُستطاعُ — أورثَهُ الهمَّ والغمَّ ، والضَّجَرَ والمَلَلَ . تراهُ مُقطَّبَ الوَجْهِ ، يَفْتَرُّ(٥) ثَغْرُه عن بَسْمةِ الحزنِ الأليم ، والشَّجَنِ(٦) الدَّفين .

(١) الوجه (٢) القامة (٣) المصائب . (٤) النِّياط : عِرق متصل بالقلب من الوتين إذا قُطع مات صاحبه (٥) افتر : ضحِك ضحِكا حسنا . (٦) الحزن .

ولكنَّهُ فى سبيلِ إسْعادِ ابنتِهِ الوَحِيدَةِ ، وإدْخَالِ السُّرورِ إلى رُوعِها[١] ، كى لا تسكنَ إلى هواجسِ أفكارِها ، وشوارِدِ عقلِها تَكلَّفَ أن يُصوِّرَ لها حياتَه بصورةٍ خياليَّةٍ ؛ رَحمةً بها ، وإشفاقاً عليها ؛ لتشعُرَ بالسعادةِ النَّفْسِيَّةِ ، واللذةِ الرُّوحية .

كان الأبُ يبذلُ غايةَ جُهدهِ ، ويَدفعُه حبُّه لابنتِه — منذ نعومةِ أظفارِها — أن يجعلَ حياتَها سعيدةً ، بعيدةً عن مواطنِ الكدَر ، ومنازلِ الألَمِ ، حتى لا تحزَنَ لِذَهابِ بصرِها ، وفُقْدَانِ نورِ الحياةِ الوَضَّاءِ من عَيْنيْهَا ، فى ذلك الوَجْه الذى تَشِعُّ منهُ آياتُ الجمَالِ ، وعَلاماتُ الذكاءِ . وقد بلغ مأمُولَه ، وحقَّق قصْدَه ؛ فلمَست ابنتُه الغِبْطةَ عن كثَبٍ[٢] ، وأحسَّت الهناءةَ تحومُ حولَها ؛ إذْ كانَتْ تَرى كلَّ شَىْءٍ فى الوجودِ بعيْنَىْ أبيها ، اللتين كانتا تُصَوِّرانِ الظَّلامَ نُوراً ، والشقاءَ سَعادةً ، والفقرَ غِنى .

وذاتَ يومٍ كانت « برْثا » مشغولةً بعمل ملابِسِ اللُّعَبِ فى حُجرةِ الجلوسِ التى ظهَرت كمصْنعٍ ، زُيِّنَتْ جُدرانُه برفوفٍ صُفَّت عليها صناديقُ مملوءةٌ باللُّعبِ من كلِّ حجمٍ وصِنفٍ ، على

---

(١) قلبها (٢) عن قرب

مراتبَ مُتَبايِنةٍ في القَدرِ ، منها ما يصلُحُ لأبناءِ العامَّةِ ، ومنها ما يُناسبُ أبناء الخاصَّةِ . وأمامَ الفتاةِ خِوانٌ عليه قِطعٌ من النسيجِ المُلوَّنِ ، تَصنعُ منها مَلابسَ الدُّمَى[1] ، وحولَها أكوامٌ منثُورة ، من سُفُنٍ وعجلاتٍ ، وأحصِنةٍ وطُبولٍ ، في حين أنّ أباها قد وقفَ بالجانبِ الآخرِ من الخِوان ، يُلوِّنُ بريشةِ الرسْمِ صناديقَ اللُّعَبِ — فقالت : « أَبِي ! إنكَ خرجتَ الليلةَ الماضية بِمعطَفِك الجميل الجديدِ . »

فأجاب أبوها ، وقد نظرَ – والأسَفُ يَملأُ قلبَه – إلى مِعطَفٍ من الخيْشِ مُعلَّقٍ لتجفيفِه – : « نعم ؛ قد خرجتُ بِمِعطَفِي الجميل الجديدِ . »

الابنة : « ما أشدَّ سُروري بِشرائِك إياه يا أبي ! »

الأب : « ولقد خاطَتْهُ لي يدٌ حاذقة ، ويَكبُرُ على مِثلِي أن يَستحقَّه . »

عند ما سَمِعَت الفتاةُ الوَفيَّةُ قولَ أبيها ، صاحت بصوت يَنِمُّ عن العجَبِ — وقد افترَّ[2] فُوها عن ابتسامةٍ عذْبةٍ

---

(١) جمع دُمية . وهى الصورة من العاج وغيره ، أو الثيابُ التى فيها التصاويرُ وهو المراد (٢) ضحِك ضحِكا حسنا .

رقيقةٍ — وهى تُصَفِّق بيدَيها : « أهو جميلٌ لا تستحقه ؟ أهناك شىءٌ يَعظُم على أبى الباسمِ الوجْهِ، الأسْودِ الشعرِ، الجميلِ المُحَيَّا[١] ؟ أيمكنُ أن يكونَ فى الحياةِ شىءٌ جميلٌ ليسَ أبى أهلاً له ؟ »

دارَ هذا الحديثُ بين الأبِ وابنتِه « بِرْثا » التى تَخالُ[٢] أن السعادةَ قد أظلَّتْ سماء حياتِهما ، وما كانت تعلَمُ أنَّ تلك السَّعادةَ من نَسْجِ الخيالِ أو الوهمِ الَّذى تَكلَّفه والدُها . ولو استطاعت المسكينةُ أنْ تَراه — وقد حطَّمه الدهرُ، وأحناه الزمنُ — بظهرِهِ المُقوَّسِ ، ووجهه العابسِ ، دائباً فى عَمَلِه، والعرقُ يسيلُ على جَبينِه من كثرةِ الكَدِّ والجُهدِ ، يُخرِجُ زَفَراتِ الحسْرةِ وتأوُّهاتِ الندمِ المُحْرِقة — لأثَّرَ هذا المنظرُ فى نفسِها تأثيرًا تدمَعُ له عَيناها ، وتَقَطَّعُ أوْصالُ فؤادِها ، فتخِرُّ مَغشِيًّا عليها من هَولِ تلك الصَّدمةِ المنيفةِ ، رحمةً بالأبِ المسْكينِ وحنَانًا .

أخذَ الأبُ « كَالِبُ » يُؤدِّى عملَه بِهمَّةٍ ونشاطٍ ، ورَغِبَ فى أن يُسرِّىَ عن نفْسِه بعضَ ما ألَمَّ به من شجَنٍ[٣] ، وما رَزَحَ[٤] فيه من نَصَبٍ وعَناءٍ ، فَبدأ يُغنِّى حوْلَ طائرٍ من الطيور ، ولكنَّ

---

(١) الوجه (٢) تظن (٣) حزن . (٤) رزَحت الناقة : سقطت إعياء .

ضَعفَه ، وما كَانَ يُلاقيه من سوءِ العيْشِ وشَقْوَةِ[1] الْحياةِ ، كلُّ ذلك بدَا بين نَبَراتِ صوْتهِ جَلِيًّا ، فارتجفتْ نَغَماتهُ ، واضطربت إيقاعاته ، واهتزَّت عضَلاتُ لسانهِ ، وكادَ صَوْتُهُ يتلاشى .

وعلى حينِ غَفْلةٍ ، دخلَ المخدومُ « تَـكِلتُون » ليُشْرِفَ على العَمَل ، فراعَتْه تلك الحالُ ، وخاطبَهُ بصوتٍ مُزْعِجٍ غاضبٍ : « حذارِ يا (كالِبُ) أنْ تَعْمَلَ وتُغَنِّيَ ؛ فإنّ الغِناءَ مُلْهٍ عن العَمل ، مَضْيعةٌ للزّمنِ . حذارِ أنْ أراكَ ثانيةً تُغنِّي وقتَ العمل . » فهمسَ « الأبُ » فى أذنِ « بِرْثا » حتى لا تتأثّرَ بذلك الخطابِ القاسِي :

« إنكِ لا تريْنَ كيف ينظرُ السيِّدُ إليَّ بعيْنَيه مازِحاً ، مُدَّعياً أنهُ يُوبِّخُني . »

فضحِكت الفتـاةُ ، وأومأت إلى أبيهَا مُصَدِّقَةً ما قال ، وقد أخذَت يَد « تَـكِلتُون » وهو نافِرٌ من إعطائِها إياها ، وقبَّلَتها بِلطْفٍ ، فانْتَزَعها منهـــا بِغِلْظَةٍ وقال مُتَذَمِّرًا : « ماذا يفعلُ المعتوهُ (كالِب) ؟ »

فظنَّتْ « بِرْثَا » أنه لا يزالُ يَمزَحُ وقالت : « أشكركَ

(١) الشَّقا ، والشقاء والشَّقوة والشِّقوة : الشدة والعسر .

يا سيِّدى على شجرَة الْوَرْدِ التى تفضَّلتَ بإِهْدَائِها إلىَّ . »
وكان أبوها قد اشتَراها لها بما اقتصدَه من دَراهمهِ المعدودَةِ ، وجعَلَها تَعتقِدُ خطأً أنها هَدِيّةٌ من « تَكِلتُون » تاجرِ اللُّعَبِ .

ولم تكدْ تَنتهِى من كلامِها حتى بادَرها[1] السيّدُ مُتَسائلا : ماذا تُريدين أيتُها الْحمقاء ؟ » فلم تُحِرْ جواباً . وللحالِ أمرَ « كالِبَ » بأداء بعضِ الأعمالِ مع قَسوةٍ فى المُعاملةِ ، خاليةٍ من المجاملةِ ، وخرجَ دُونَ أن يُودِّعَ أحداً .

أُوصِدَ البابُ بعدَ خُروج « تكلتُون » وأصبَح الأبُ فى جوٍّ حرٍّ طَليقٍ ، فلم يَجدْ مناصاً[2] من التحدُّثِ إلى فتاتِه ، ليُزيلَ ما عساهُ أن يكونَ قد عَلِقَ[3] بذهْنِها من الخواطرِ والهواجِسِ ، حتى لا تبدُوَ الحياةُ أمامَها مُرّةً قاسِيَةً ، وحتى لا يَنْهارَ ذلك الصَّرْحُ[4] الذى شيَّدَه لها من السَّعادةِ الْخيالِيّةِ .

فقال وقد مال برَأسهِ إليها : « لو رأيتِه يا (بِرْثَا) وهو ينعَطفُ إلىَّ بعَينَيهِ مازحاً لأدْرَكتِ أنَّه يتظاهر بالعُنفِ ، ويَدَّعِى خُشونةَ المُعامَلةِ ، لِيفرَّ من حَمْدِ الناسِ وثنائِهم . »

(١) عاجلها (٢) مفرا ، ملجأ . (٣) تعلق . (٤) القصر ، وكل بناء عال

فقالت : « إن طبعَهُ كَذلك يا أبَتَاهُ ! خُلُقُه قويمٌ، وأصْلُه كريمٌ ؛ إذ يَأبَى أن يشكرَهُ إنسانٌ على هدَاياه ؛ فهو مَلَكٌ يَرَح ليسُرَّنى كلّما أتانا . »

ولقد حفزَ الأبَ إلى خِداعِ ابنتهِ وَمُهجةِ حياتهِ على هذاالنَّحو، من تصويرِ الباطلِ لها حقًّا، والخيَالِ حقيقةً — ما يُكِنُّهُ لهَا من حُبٍّ طاهِرٍ، وما يختَلِجُ بَينَ جوانحهِ من حُنُوٍّ وإشْفَاق على رُوحِها الطاهرة ، ونفسها البريئةِ . فقد مَثَّلَ لهــــا مخدومَه « تِكلتُون » بريشةِ رسَّامٍ ماهرٍ ، مُفْتَنٍ[١] فى صناعتهِ ، بارعٍ فى فنِّه — فى صورةِ رجلٍ نبيلٍ، طيِّبِ القلبِ ، عظيمِ المروءةِ ، مُحبٍّ « لبرْثا » . فهامَتْ به حُبًّا ، وكانت سعيدةً بعقيدتها ؛ ولكن لم تَدَعْها الأيامُ ترعى ثِمَارِ بَذْرِها[٢]، وتهنا بغرْسِ يديْهَا ، بل صوَّبت إليها رِمَاحَ قِسِيِّها النافذةِ ، فأصابت الغَرَضَ ، ونالت الهدَفَ ، وتركتها رَهينة الآلامِ ، سَجينةَ الخواطِرِ ، تَصْلَى[٣] ســـعيرَ الهوَى الغَادرِ ، إذْ أُخبِرتْ ذاتَ يومٍ بأنَّ مالكَ رُوحِها ، وآسِرَ لُبِّهَا[٤] تزوَّج ، فلَمْ تَسْطِعْ أن

---

(١) افتنَّ فى صناعته : جاء بالأفانين (٢) زرْعها .
(٣) تَصلَى : تحترق (٤) عقلها

تُخْفِيَ عن أبيها ما أَثارَ رَوْعَهَا[١] من شَجَنٍ[٢] مُلِمٍّ ، وحزنٍ كثير ، حينما سَمِعَتْ نبأ قرانه .

فَهِمَ الأبُ الحقيقةَ ، وعرَفَ ما وقعَتْ فيه فَتاتُه ، فصاحَ وهو يَئِنُّ من وَخْزِ[٣] الضَّمير : « يا لَلسَّماء ! هَلْ خدَعتُكِ يا « بِرْثا » مَدَى عُمْرِكِ لأَكسِرَ قَلبَكِ في النِّهايةِ ؟ » ثُمَّ أخذ يُعَنِّفُ نفسَه على ما ارْتكبَهُ من خَطأٍ كبيرٍ ، واقترفَ من إِثمٍ عظيمٍ ، باحِثاً عَمَّا يُكفِّرُ به عن جنايته العظمَى ، ويُزِيلُ عن ابنتِهِ شَبحَ سَقَامِها[٤] المُجسَّم .

وأَخِيراً لم يجدْ بُدًّا من الاعْتِرَافِ بالواقِع فقالَ :

« عَزيزَتى بِرْثَا ! إِنَّ لَدَىَّ نَبأً يجبُ أن أَبوحَ[٥] لكِ بهِ . هُناكَ شىءٌ فى نَفْسى لا بُدَّ أن أُسِرَّهُ إليك ، فأَصْغى إِلَىَّ وأَعيرينى سَمْعَكِ ، ولا تظنِّينى قاسياً عليك . »

فتوجَّهَتْ نحوَهُ « برثا » قائلةً : « أَأُصَدِّقُ أنَّكَ تَقْسُو علىَّ يا أَبى ؟ »

الأب : « إِنِّى لا أَقْصِدُ ذَلك يا ابْنَتى العزيزة ! وما خَطَر لى

(١) فزعها (٢) حزن (٣) تأنيب (٤) السَّقام : المرض . (٥) أظهره

أن يُخالجك مثلُ هذا الظن . ابنَتى المِسْكينة ! إِنَّ العَينَينِ اللَّتَينِ وثِقْتِ بهما قد غشَّتَاكِ . إن العَالَمَ الذى صوَّرتُه لكِ لتَعِيشِى مُنَعَّمَة بلَذَاذةِ العَيْشِ فيه، سَعيدَةً هانئِةً — لا وُجودَ لهُ . لَقَدْ كتمتُ عَنْكِ ما يَثْلِمُ[1] عَواطِفَكِ ، وأظهَرْتُ لَكِ ما تَقَرُّ به عَينُكِ ، ويبْعَثُ فيكِ الأملَ . وأخْرَجتُكِ من عالمِ الْحقِيقةِ إلى عالمَ الْخيَالِ الواهِى . وجعَلْتُ البيئَـــةَ الّتى تحيطُ بكِ بِيئَةً خيَالِيَّة بَعيدةً عنِ الواقِعِ . »

برْتَا : « ولـكنَّ الأحياءَ مِنَ النَّاسِ ليْسُوا بخيالاتٍ ، وليس فى استطاعتِكَ أن تتَنَاوَلَهم بالتَّبْدِيلِ . »

الأب : « لقد فعـلتُ ذلك يا برْتَا ! وانخدَعتِ بخيَالاتى الـكاذبَةِ ، فاصفحِى عَنى وسَامِحِينى إن الرَّجُلَ الذى يحْتَفِلُ بزوَاجه اليومَ ، ليس مَنْ وَصَفْتُهُ لكِ بالأمْسِ . إنه قاسى القلْبِ ، لا يتألَّمُ لأحَدٍ ، ولا يحزَنَ لأحد . إِنَّه نَافِرُ الطَّبْعِ ، غلِيظُ القَوْلِ ، سَيِّئُ المُعامَلَةِ ، لا يجزَعُ لإخْوَانِه ، ولا يُشَاطِرُهم مُصابَهم . لا يعرفُ الشفقةَ ، والشفقةُ لا تَعْرِفُه . »

(١) يمس بأذى

بِرِثَا : « يا لله ! ما أعْظَمَ ما رُزِئتُ به من فَقْدِ البَصَر ! كيفَ تخدَعُنى يا أبى ! وأنا عاجزةٌ لا عَوْن لى ولا ناصر ؟ »

فطأطأ « الأبُ » المسكينُ رَأسَهُ نحوَ الأرضِ أسَفاً . ثُمَّ سألته ابنتُه أن يَصِفَ لها بيْتَها ، فقالَ : « إنه متواضعٌ تَبْدُو عليه سِيماَ[1] الفَاقةِ ، ودَلائِلُ الهَوانِ والضَّرَاعَةِ[2] ، فهُو عُشُّ الحِرْمانِ والخَصاصَةِ[3] ، ذُو حُجَرٍ مُقْفِرةٍ ، وسُقُفٍ مُنهَارةٍ[4] ، وعَمَدٍ[5] خَاوِيَةٍ ، بَالٍ كمِعْطَفِ الخَيشِيِّ . » ثم أَلَحت عليْه أنْ يَكْشِفَ عن سِرِّ الهَدَايا التى قُدِّمَتْ إليهاَ فأحبَّتها . فلمْ يُجبْ رَغبَتَها ، فعرَفَت أنَّه اشْتَرَاها من نُقُودِهِ التى اقتصدَها من قُوتِه ، وقالَتْ : « اَلآنَ أنْظُر إليكَ أيُّها الوالدُ الشَّفِيقُ ! فصِفْ لى نَفْسَكَ ، وأىَّ شَىْءٍ تُشْبِهُ ؟ »

الأبُ : « إنّنى هَرِمٌ يا بُنَيَّةُ ! نحيفُ الجِسْمِ ، مُقوَّسُ الظهرِ ، مَنهوكُ القُوَى ، مُخادِعٌ أحمقُ ، قد وخَطَنى[6] الشَّيْبُ ، وعلانِى الهمُّ ، وافْتَرسَتْنى حوادثُ الدَّهْرِ ، ومِحَنُ الأيَّامِ ، وتتابَعتْ عَلَىَّ صروفُ الزَّمانِ كقِطَعِ الليْلِ ، فأَكلَتْ منِّى الأخْضَرَ واليَابِسَ .

---

(١) علامة . (٢) الذل . (٣) الفقر . (٤) مهدمة .
(٥) عَمَد ، عُمُد : جمع عمود (٦) خالطنى

فجَثَتِ(١) الفتاةُ أمامَ أبيها ، وأدارتْ ذِراعَيْها حَوْلَهُ تبْكى وتَقولُ : « لقد عادت إلىَّ بَصيرتى ، ورجعَ إلىَّ نَظرى ، وأرَى الآنَ أبى حقًّا إننى لمْ أرَ أبى حقًّا إلاّ الآنَ . هَلْ يَظُنُّ أحَدٌ أنْ علَى وَجْهِ الْبَسيطَةِ أبًا شُجاعًا أُحِبُّه كُلَّ الْحُبِّ ، وَأفِى لَهُ كلَّ الْوَفاءِ ، كذَلِكَ الشيخِ الواهنِ الأبيضِ الشَّعْرِ ؟ أبى ! لَنْ أنْسَى فِى أدْعِيتى وتَبَتُّلِى ، وصَلاَتى ، وتشكرَاتى لِلّه — شَعْرَةً بيضاءَ مِن رَأسِك . »

فانحدَرَتْ الدُّمُوعُ من عَيْنَيْه ، وسالَتْ على وَجْنَتيْه وقَالَ : « ابنَتى ! إنَّ أبَاكِ لا يستحقُّ عَطفَك بعدَ أن خَدعَكِ عن حسنِ نيةٍ ، وسَلامةِ طويةٍ ، وأذْهَبَ سَعادتَك النفسيةَ .

برْثَا : « أبَتاهُ ! وَارَحْمَتَاهُ لِفتَاتِك ! فإنك لم تذْهبْ بسعادتى يا أعزَّ الآباءِ . وكُلُّ مَا أبْتَغيهِ قد تحقَّقَ لى فى أبوتِك . كنْتُ سَعيدةً قَانعةً فيما مَضَى ، ولكنى الآنَ أكثرُ سَعَادةً وقناعةً ؛ فقَدْ عَرَفتُك حَقَّ المَعرفَةِ ، وقَدَّرْتُك حَقَّ التَّقْدِيرِ . ورَأيتُ العالمَ كما هُوَ ، والحياةَ كما هِىَ . فلَسْتُ بِعمْياءَ بَعْدَ الْيَوْمِ . »

---

(١) جلست .

القِصَّةُ الخَامِسَةُ

« المَــرْكِيونِس »

أو

الخادمُ المسكينةُ

عاش السيِّدُ «سمْسونُ بْرَاسُ» المحامى مع أختٍ له جُبِلَت على الفظاظةِ والقَسوةِ تُدعَى الآنسةَ «سَالى بْرَاس». وكان على النقيض منها كاتبُ أخيها السيدُ «دِكْ سْوِيڤْلَر» ؛ فهو مَرِحٌ خفيفُ الرُّوحِ، متواضعٌ لا يُحبُّ الظهور. ولقد وقف فى صباحِ اليومِ الأولِ من عملِه مع المُحامى على كثيرٍ مما انطوَت عليه نفسُ أختِه ؛ إذ أخذَتْه بالغلظةِ وعَسفت(١) به، وضيَّقت الخِناقَ(٢) عليه، فأخذَ ينتهزُ الفرصةَ للخلاصِ منها. وما كادت تغادِرُ المكتبَ حتى أحسَّ زوالَ الرقابةِ عنه، وانطلقَ يُزيلُ عن نفسه الهمَّ ؛ فقفزَ من كُرسيِّه، وأخذَ يغنِّى فى فِناءِ الحجرةِ. وبينما هو غارقٌ فى سرورِه إذ سمعَ دقًّا خفيفاً خارجَ الحجرةِ أعقَبه دقٌّ هادئٌ على

---

(١) ظلمته (٢) الخناق : حبل يخنق به

باب حجرةِ المكتبِ فقال : « ادخل » . فتكلم الطارقُ بصوتٍ خافتٍ[١] هادئ : « أتسمحُ يا سيدى بأن تجىء لترِىَ الُحجرَ من يريدون السُّكْنى ؟ »

رفع (الكاتبُ) رأسَه فإذا أمامَه فتاةٌ هزيلةُ الجسمِ ، ترتدى[٢] ميدعةً[٣] خشنةً قذرةً ، قد أسدلت على رأسِها غطاءً ظهرَ منه وجهُها ويداها . فخاطبها قائلاً : « لماذا ؟ ومن أنتِ ؟ » فلم تُحِر الفتاةُ جواباً إلاَّ أنَّها قالت : « أرجوك يا سيِّدى أن تأتىَ لِترِىَ الغرفَ الساكنين الجدُد . »

قال (الكاتبُ) : « إنه لاصلةَ لى بالُحجَرِ، أخْبريهم بالحضورِ ثانيةً فى وقت آخرَ . » فقالت : « أرجوك يا سيِّدى أن تقومَ بما عرَضتُ عليك؛ لأنَّ الآنسة (سالِى) لم تشأْ أن أقابلَهم ؛ لئلا يَجدوا فى صِغرى ما يدعوهم إلى الاعتقادِ بعدمِ العنايةِ بهم ، والقيامِ بخدمتهم خيرَ قيامٍ .

فقال (الكاتبُ) وهومُتذمِّرٌ[٤] وأماراتُ الغضبِ باديةٌ[٥] على وجههِ : «هذا شىءٌ غريبٌ . أتُريدينَ أن تقولى إنكِ القائمةُ بأمرِ الخدمةِ فى المنزلِ ؟ » ثم ذهب من فَوْرِه وأَرَى الغرفَ الساكنين .

(١) منخفض (٢) تلبس (٣) ثوب العمل (٤) مستاء (٥) ظاهرة

عادَ الكاتبُ إلى مكتبِه ، وقد تألَّمَ لتلك الخادمِ الصغيرةِ المسكينةِ ؛ إذ كانت تعيشُ عيشةَ البؤسِ والشقاء ، في سِردابٍ مظلمٍ تحتَ الأرضِ ، ولا يتسنَّى[1] لها الخروجُ إلا تلبيةً لنداء أجراسِ القاطنين[2] ، فما خرجَتْ للتنزُّهِ مطلقاً ، وما خلعَتْ مِيدَعتَها الخشنةَ ، وما رأتْها الشمسُ إلا مراتٍ معدودةً ، وما أُتيح[3] لها أن تمكثَ في الهواء المنعشِ إلا قليلاً ، ولم تُواتِها الفرصةُ لتركَنَ إلى الراحةِ ، ولم يأتِ أحدٌ للاستفسارِ[4] عنها أو الاستئناسِ بها ؛ لأنها لا تعرفُ أحداً ، ولا يفكِّرُ فيها أحدٌ .

وذاتَ يومٍ قال الكاتبُ لنفسِه : « إني مُستعِدٌّ لأن أمنحَ[5] مكافأةً عظيمةً مَن يدُلُّني على مسكنِ هذه الخادمِ المِسكينةِ ويُخبِرُني كيف تُعامَلُ ، وكيف تعيشُ . » وبينما هو غارقٌ في آمالِه إذ حانتْ منه التفاتةٌ فذهبَ إلى بابِ المكتبِ ففتَحه ، وإذا الآنسةُ (سالي) هابطةٌ إلى المطبخِ في سِردابٍ[6] تحتَ الأرضِ فقال : « واعجبًا ! إنها ذاهبةٌ لإطعامِ الخادمِ الجائعةِ . » وبعدَ أنْ اخترقَت الآنسةُ (سالي) حُجُبَ الظلامِ ، وتوارَتْ[7] عن الأنظارِ

(١) يتيسر (٢) الساكنين (٣) قُدِّر (٤) السؤال
(٥) أعطى (٦) السرداب : بناء تحت الأرض للصيف (معرب) (٧) اختفت

خَفَّ (الكاتبُ) إلى السُّلَّمِ واقتفَى آثارَها حتى وصَل إلى بابِ المطبخِ الخلفيِّ، بعد أن دخلَتْه الآنسةُ (سَالِى) وقد حمَلَتْ فى يدها فخِذاً من لحمِ الضأنِ .

كان هذا المطبخُ مُنخفِضاً جدًّا قد ضرَبت الرطوبةُ فى أنحائِهِ، وانتشَرت الظُّلمةُ فى نواحيه، وخَيَّمَ البؤسُ والشقاء عليه، وكانتْ فيه قِطةٌ نحيفةٌ يبدو عليها الجوعُ، تلمسُ ما يتساقطُ على الأرض بشَرَهٍ شديدٍ، وكان كلُّ ما فى المطبخ مُحكَمَ الإغلاقِ حتى لا يتسنَّى لأحدٍ الوصولُ إلى شىء منه، ولا يستطيعَ كائنٌ مِن هَوامِّ الأرضِ أن يعيشَ فيه؛ لأنه لا يجدُ ما يستطيعُ به الحياةَ .

وقفَت الخادمُ أمامَ سيدتِها مَوقفَ الخنوعِ والذِّلةِ، وانحنَتْ نحوَ الأرضِ . فقالت الآنسةُ (سالى) : « هل أنتِ هنا ؟ »

فأجابَت الخادمُ بصوتٍ ضعيفٍ : « نعم يا سيِّدتى ! »

فقالت : « لا تقرَبى فخذَ الضأنِ؛ فإنى أخشَى أن تلتقِميها . »

فانزوت[1] الخادمُ المسكينةُ فى جانبٍ من المطبخِ .

أخرجَت الآنسة (سالى) مِفتاحاً من جَيبها، وأخرجَت بعضاً

---

(١) انتحت

من البطاطسِ الباردةِ التى لا تؤكَلُ ، وقالت : « أتَرَيْن هـذه البطاطسَ ؟ خذيها . » ثم قطعَت لها قِطعتَين صغيرتين من اللحمِ البارِدِ ، وأمسكَتْهما بالشوكةِ ، وأعطَتْهما إياها ، وقالت لها : « لعلكِ لا تذهبين إلى أحدٍ ثم تدَّعِين أنكِ لا تجدِين هنا لحماً ؛ فهذا هو اللحمُ فتناوَليه »

فنظرَت إليها الخادمُ الصغيرةُ بعينَين ملؤهما الجوعُ ، ثم انقضَّتْ على الطعامِ فالتَقمتْه فى أقلَّ من ارتدادِ الطرْفِ(١) .

قالت الآنسةُ (سالِى) : « أتُريدين شيئاً أكثرَ مِن هذا ؟ »

فأجابت — والجوعُ قد أخذَ منها مَأخذَه ، فلم تستْطع الـكلامَ إلا همْساً : « لا يا سيِّدتى . »

وضَعت الآنسةُ (سَالِى) اللحمَ فى الخزانةِ وأحكمَتْ إغلاقَها ، ثم اقترَبت من الخادِمِ ، وأخذَت تردِّدُ النظرَ إليها ، ثم بدَأتْ تقرَعُها مرَّةً على رأسِها ، وأخرَى على يدِها ، وثالثةً على ظهرِها(٢) ، كأنها وجَدت من المستحيل أن تقفَ بالقُربِ منها دونَ أن ينالَها بعضُ الأذَى ، ثم تناولت شيئاً من العاطوس(٣) وصَعدَت فى السُّلَّمِ ، فتسلل أمامَها الـكاتبُ إلى المكتَبِ من غيرِ أن تَراه .

(١) البصر (٢) يُعامَل الخدم الآن فى انجلترا معاملةً كلها عطف وشفقة .
(٣) ما يعطس منه مثل النشوق

رجعَ الكاتبُ (دِكْ) إلى مكتبِه والحزنُ يحزُّ(١) فى قلبه ، وعلاماتُ الضَّجَرِ والألمَ باديةٌ على مُحَياه(٢) ؛ لهَوْلِ ما رآه من سوء معاملةِ تلك الخادمِ البائسةِ المسكينةِ التى لا تجدُ من الطعامِ ما تُمسِكُ به رَمَقها(٣) ، ولا تَشَمُّ من الهواءِ ما يُقوِّيها ، ولا ترى الشمسَ إلا غِرارًا(٤) ، فكانت تقضى طولَ وَقتِها بينَ جُدرانِ ذلك المطبخِ الرطبِ المظلمِ ، فكثُرَ تفكيرُه فى أمرِها ، ووَدَّ لو استطاعَ إنقاذَها وإخراجَها من ظُلُماتِ سِجنِها .

وذاتَ ليلةٍ بينما هو جالسٌ فى مكتبِه سمِع غَطيطا آتياً من جهةِ البابِ ، فظَنَّ أنه صوتُ الخادمِ لا مَحالةَ ؛ فكثيرًا ما كانت تُصابُ بالبردِ لرُطوبةِ المطبخِ الذى تعيشُ فيه ولقد حانت منه التفاتةٌ ، فنظَرَ نحوَ البابِ ، فرأى عَيناً تنظُرُ من ثَقبِ المفتاحِ ، فذهب إليه بخِفةٍ وهدوءٍ وفتحه ، وإذا بالخادمِ خلفَهُ ، فأمسك يدِها قبل أن تُحِسَّ اقترابَه منها ، فذُعِرَت وصاحت ؛ ظانَّةً أنه سيُعاقِبُها . وأخذَت تحاولُ الفِرارَ وتتوسَّلُ إليه قائلةً : إنِّى لم أبْغِ من وراءِ نَظْرَتى رِيبةً يا سيِّدى . وما أتيتُ إلى هنا إلا لأنِّى

---

(١) يقطع (٢) وجهه (٣) الرَّمق : بقية الحياة . (٥) فترات قصيرة

سئمتُ الحياةَ تحت الأرضِ ، وبين جُدْرانِ ذلك المطبخِ المظلمِ الرطْبِ . فأرجوكَ يا سيِّدى أن ترفُقَ بى ، وترحَمَ ضَعفى ، فلا تُخبر الآنسةَ (سالى) بشىءٍ مما حدَث وإلَّا قتلَتنى شرَّ قِتلةٍ . »

فقال الكاتبُ : « اطمَئِنى ولا تخافى أحداً ، ولا يتسرَّبْ إلى ذهنِك أىُّ فكرٍ فى إيذائِك أو إلحاقِ الضَّرر بك ، ثم سكت هُنيهةً ، وسمحَ لها بعدَها بالدخولِ فى حجرتِه لتُدفئَ نفسَها ، وأمرَها بالجلوسِ .

قالت الخادم : « إنى لا أجسُرُ[1] على ذلك ، وأخشى أن تقتلَنى الآنسة (سالى) إذا عَرفت أنى أتيتُ إلى هنا . »

الكاتب : « أعندكِ نارٌ فى المطبخِ ؟ »

فأجابت . « عندى نارٌ ضعيفةٌ . »

الكاتب : « إنك ترَيْن نحيفةً هزيلةً . أيُمكنكِ أن تتناولِى شيئًا من الخبزِ واللحمِ تُقيمين به أوَدَكِ[2] ؟

قالت : « نعم ، وأشكرُكَ يا سيِّدى . »

قال : « ما عمرُكِ ؟ »

---

(١) أقدم (٢) اعوجاجك ، صحتك السيئة .

قالت : « لا أعرفُ يا سيدى ، ولكنِّى أظنُّ أن عُمرى عشرُ سنَوات .

فنظر إليها (الكاتبُ) والأسَى[١] يملأُ جوانحَه، والأسَفُ يُقِضُّ[٢] مَضجَعَه ، ثم أحضرَ ما تيسَّرَ من الطعامِ والشرابِ ، وتبعَها إلى المطبخِ ، فوضعه أمامَها وأمرَها بتناولهِ . وما كادت الخادمُ المسكينةُ تَرى الطعامَ حتى هوَتْ عليه فأتَت على ما فى الإناء . وبعد أن انتَهت من الشرابِ قام (الكاتبُ) وأخذ يُدرِّبُها على القيامِ ببعضِ الألعابِ المنزلية حتى أجادَتها . ثم قال لها : « اسمَحى لى لكى يَتِمَّ سرورى أن أناديَك (بالمَرْكيُونِس) أتسمَعين ؟ . » فأومَأت الخادمُ المسكينةُ أنْ نَعم ، ثم أخَذا يلعبان حتى دقَّت الساعةُ العاشرةَ ، فتذكَّرَ أنه يجبُ عليه أن يَذهبَ إلى حجرةِ مَكتبهِ قبلَ أن يعودَ (المحامِى وأُختُه) ، فاستأذَنها فى الخروجِ وقال : يا (مَرْكيُونِس) ، أرجو أن تَعُدِّينى صديقاً لك ، وآمُلُ أن نلعبَ كثيراً حتى أُدخِلَ السرورَ على نفسِك . وقبل أن أغادِرَكِ أريدُ أن أسألكِ مرّةً أخرَى عن السببِ الذى حَدا بكِ إلى النظرِ

(١) الحزن (٢) يقلقه .

من فتحةِ البابِ . فأجابت وقد استولى عليها الذُّعْرُ(١) ، وتملَّكها الفزَعُ : « ما كنت أريد شيئاً أكثرَ من أن أسألكَ قطعةً من الخبز ؛ فقد تغلَّبَ علىَّ الجوعُ ، ولم تُعطِنى سيِّدتى ما يكفِينى من الطعام . ولو تركَتْ لى مفتاحَ الخِزانةِ ما امتدَّت يَدِى إلى أكثرَ مما يحفَظ الحياةَ ، ويُزيلُ ألَمَ الجوعِ .

دارت الأيامُ دورتَها وتركَ الكاتبُ عملَه مع المحامى ، وعاش فى حُجرةٍ صغيرةٍ مُنعزلةٍ عيشةَ الفقرِ والشقاء . وذاتَ ليلةٍ دبَّ دبيبُ المرض فى جِسمِه ، فأَوَى(٢) إلى فِراشِه يتلوَّى من فَرْطِ الداءِ ، ووَطأةِ(٣) المرضِ ، وشعرَ بظمأٍ شديدٍ لا يستطيعُ إطفاءه ، وأخذَ يحلُمُ فى تلك الليلةِ أحلاماً مُزعِجةً . وهكذا قضَى ليلتَه فى بَحرٍ لُجِّيٍّ(٤) تتقاذفُه(٥) الأهوالُ ، وترتطِمُ به الهمومُ . وفى إحدَى الليالى مرَّ به طَيفُ الكَرَى(٦) ، فأزال عن عينيه شَبَحَ(٧) السهادِ ، فاستسلَم للنومِ ، وانقطعَت عنه أحلامُه وآلامُه ، فاستيقظَ من نومه وقد سَرَى النشاطُ فى أعضائِه ، وأحسَّ الرّاحةَ تعُمُّ جسمَه ، فأخَذ يتذكَّرُ الماضِىَ ، وما ألمَّ(٨) به

(١) الفزع والخوف . (٢) لجأ (٣) شدة (٤) عميق (٥) تتلقفه
(٦) النوم (٧) جسمه (٨) نزل

من آلامٍ وأحزانٍ . وبينما هو سابحٌ فى بحارِ خيالهِ إذ تذكرَ أنه نَسِيَ بابَ الحجرةِ مفتوحاً ، فأزاحَ الستائرَ بيده ، ونظر إلى الحجرةِ فوجدها مُغلَقة ، ولكنه شاهد فيها تغيُّراً كثيراً ؛ فقد وجَدها نظيفةً مرتَّبةَ الأثاثِ ، نقيةَ الهواء ، تختلفُ كثيراً عما كانت عليه حينما أوَى إلى فِراشه . ولشدَّ ما كانتْ دهشتُه عند ما وقعَ نظَرُه على زجاجاتِ الأدويةِ . وسرعانَ ما عادت إلى نفسِه ذِكرى (المَرْكِيونِس) ، فتخيَّلها وهى واقفةٌ أمامَه تلاعبُ نفسَها على الخوان .

وتذكرَ كُلَّ ما دار بينهما من حديثٍ . فظن أنه فى حُلمٍ من الأحلامِ ، فوضع رأسَه على الوِسادةِ ، واستسلَمَ لأحلامهِ ، ولكنّه عاد فرَفَع الستائرَ ثانيةً ، وأَخذَ يجولُ بنظرِه فى الحجرةِ ، فوجَد (المرْكيُونِس) واقفةً فى ناحيةٍ منها وقد تملكها الفرحُ ، وشمِلها(١) السرورُ . فأخذَت تضحكُ وتُصفقُ بيديْها ، وأَعْرَبتْ(٢) عن سرورِها لشِفائهِ ، وما لاقَتْه من همٍّ وحَيْرةٍ فى مرضهِ . فنظر إليها (دِك) نظرةَ العطفِ والرحمةِ ، وطلَبَ إليها أَن تَدْنوَ منه حتى يقِفَ على ما أَصابه من ألمٍ أَضنَى(٣) جسمَه ، وضَعفٍ أنهك(٤) قواهُ ، فهزَّت

---

(١) عمَّها . (٢) أبانت (٣) أتعبَ (٤) أذهب

(المرْكيُونِس) رأسَها وعاودَها بُكاؤها . فتحرَّكَ (دِك) فى فراشِه وقال : « الآن فهِمْتُ أنى كنتُ مريضاً مرضاً شديداً . »

فأجابت الخادمُ الصغيرةُ وهى تمسَحُ الدموعَ المنحَدِرَةَ على خدَّيْها : « لقد كنْتَ مريضاً حقًّا ، وكنتَ قابَ قوسَيْنِ[1] أو أدنَى من الموت . ولقد مضَى عليكَ الآنَ ثلاثةُ أسابيعَ وأنت طريحُ الفِراشِ . » فقال (دِك) : « يا (مركيونس) ، كيف حالُ (سَالى) ؟ » فحارَت قليلاً ، ولم تُحِرْ جَواباً ، ولكنها هزَّت رأسَها وقالت : « لا أعرفُ عنها شيئاً يا سيِّدى ؛ فقد هرَبتُ من خِدمتها ، وأسألُ اللهَ لكَ الشفاءَ التامَّ . » فسألها : « وأين تعيشِينَ الآنَ . »

فأجابت : « إنى أعيش هنا . »

زفَر (دِك) زفراتٍ طويلةً ، ثم وضَع رأسَه على الوسادةِ وقد وقعَ فى نفسِه حديثُ (المَرْكيُونِس) موقعَ النِّبالِ فى الأهدافِ ، وقال : « أخبرينى كيفَ فكَّرْتِ فى المجىءِ إلى هنا ؟ »

فأجابت : « لقد أصبحتُ بائسةً منذ غادرتَ العملَ فى مكتبِ المحامى ، فلم يكنْ لى أحدٌ يُفكرُ فىَّ سواكَ . وفى صباحِ أحدِ الأيَّامِ كنتُ قريبةً من المكتبِ ، فسمعتُ قائلاً يقولُ : إنك مريضٌ جدًّا ، وليس لَدَيك أَحدٌ يَهتمُّ بشأنكَ ، أو يُعنَى بخدمَتِك .

---

(١) قريباً جدا

وسمعتُ المحامىَ يقول : « ليس ذلكَ من شأنى . » وردَّدَت أختُه تلك العبارةَ أيضاً ، فلم أُطِقْ صبرًا على وَحْدَتِك ومرَضِك ؛ ولذلك هَرَبتُ وأتيتُ إلى هنا ، ومكثتُ بجوارِك هذه المدةَ أسْهَرُ على خِدمتِك ، وأعْنَى بشُئونِك . »

فصاح (دِك) : « إن هــذه (المرْكيُونِسَ) الصغيرةَ قد حمَّلَتْ نفسَها ما لا طاقةَ لها بحَمْلِه ، وتجَشَّمت[1] هذه المتاعبَ وتلك الآلامَ حتى أوهَنَتْ[2] صحَّتَها . » فقالت : « لا ! إننى وجدْتُ فى تمريضِك سرورًا عظيما ، ولم ألْقَ تعباً قطُّ ، فلا تفكرْ فىَّ . ويسرُّنى أنَّ صحتَك الآنَ فى تقدمٍ مستمِرٍّ يا سيدى . »

فقال (دك) : لولاكِ يا (مرْكيُونِسُ) لمُتُّ وحيداً فى هذهِ الحجرةِ ، فحياتى وصحَّتى وراحتى منسوبةٌ إليكِ ، وإلى حسنِ عنايتِك بى ، فلن أنسى لكِ هذا الجميلَ ما حَيِيتُ .

آن للسيِّدِ (دِك) أن يَفِىَ بجميلِ تلك الفتاةِ المسكينةِ ؛ فقد ورث بعضَ المالِ عن أحدِ أقاربه ، فاشترَى (للمركيونِس) ما تحتاجُ إليه من حُلَلٍ جديدةٍ جميلةٍ ، وألحقَها بالمدارسِ لتنالَ نصيبَها من التربيةِ والتعليمِ . ولما بَلغَت التاسعة عشرةَ من عمرِها بَنى[3] عليها ، وعاشا معًا زوجَينِ سعيدَين .

(١) تكبدت (٢) أضعفت (٣) تزوجها

القِصّةُ السّادِسَة

(دُرِّت) الصغــيرة

كان المَدِينُ بانجلترا — فى القرونِ الماضيةِ — يُحكَمُ عليه بالسِّجنِ إذا عجزَ عن أداء ما عليهِ من الدُّيون . وذاتَ مرةٍ خسرَ أحدُ الرجالِ المهذَّبينَ ما لَدَيهِ مِن مالٍ ، فاخِذ إلى سِجْنِ (مَرْشَالسِى) . وكان لذلك الرجلِ زوجٌ وفيَّةٌ ، وابنٌ يُدعى (إدوَارْدَ) سِنُّه ثلاثُ سِنينَ ، وابنةٌ اسمُها (فَانِى) تبلُغُ من العُمرِ سنتَين . لم تجد الأمُّ أملاً فى أداءِ تلك الديونِ ، فذهبتْ بطفلَيها للمعيشةِ فى السِّجنِ بجوارِ زوجِها المسكينِ . وكان القانونُ الإنكليزىُّ إذ ذاك يُبيحُ للزوجةِ أن تكونَ مع زوجِها السَّجينِ فى مُعتَقَلِه . ضمَّهم السِّجنُ بين جُدرانِه الضَّخمةِ ، وصارُوا لا يَروْنَ إلا وجوهَ المسجونينَ ، ولا يبصرون من العالَمِ الخارجىِّ إلا الأشعَّةَ التى تنفذُ إليهم من خِلالِ النوافذِ الضيِّقةِ . بَيْدَ[1] أنه كان يُسمحُ للأطفالِ باللَّعِبِ فى فِناء السجن ، فلم يشعر الطِّفلانِ بآلامِ الحبسِ ، ولَم يُدرِكا كيفَ كانت حالُ أبيهما من قَبلُ من

(١) غير أنه .

الثَّراءِ[١] والنِّعمة، والعيشة الرَّغْد[٢]، وكيفَ حال الأسرةِ اليومَ، وما هِيَ فيه من ضِيقٍ وشَقاءٍ، وذلٍّ وهوانٍ.

وُلِدَ للرجلِ وزَوجته فى السِّجن بنتٌ سَمَّياها (دُرِّت)، عاشَتْ فى السجنِ ولم تَخرجْ منه فى طفولَتِها، وكانت ذَكِيَّةَ العقلِ، عَميقَةَ التفكيرِ، حسَنةَ الوجهِ، خَفيفَةَ الروحِ، أَحَبَّها كلُّ مَن رآها من السُّجناء، فأَقْبَلوا عَليها يُداعبونها[٣] ويُقدِّمون لها ما يَسُرُّها.

وكان السجانُ « بوبٌ » أكثرَ الناسِ إعجاباً بها، وعطفاً عليها، يحبُّها كما يحبُّ ابنتَه.

وحينما تعلَّمتِ المشىَ اشتَرى لها كرسيًّا صغيراً وضعهُ لتجلسَ عليه بجانبِ المَوْقِدِ فى حُجرتِهِ بالسجنِ. وكان يقدِّمُ لها اللُّعَبَ والدُّمَى[٤] لتلهوَ بها. وقد أحبَّتْ (دُرِّتُ) السجانَ كما أحبَّها. لا تفارِقه إلا حينما تأوى إلى فِراشها بجوارِ أُمِّها فى المَساء.

كان نِظامُ السِّجنِ يسمحُ للزوجةِ وأولادها بالخروجِ منه للرياضةِ فى أوقاتٍ مُعيَّنةٍ، ولكنها حرَمَتْ نفسَها وأولادَها ذلك

---

(١) الثراء : كثرة المال (٢) عيشة رغد بسكون الغين وفتحها أى واسعة طيبة. (٣) يمازحونها (٤) جمع دُمية : التمثال الصغير

لتكونَ إلى جوارِ زوجِها ؛ حتى لا يشعرَ بأنَّ شريكةَ حياتِهِ تنعَمُ بزيارةِ الحدائقِ والبساتينِ من دُونِهِ .

نشأَتْ (دُرِّتُ) وهى لا تعرِفُ مِنَ الدنيا غيرَ السِّجنِ ذى الأبوابِ الضخمةِ ، والسِّياجِ(١) المرتفعِ ، والنوافذِ الضيقةِ . وكانت أمُّها لا تُحَدِّثُها عن شىءٍ من أحوال الأسرةِ حتى لا تشعُرَ وهىَ فى مَهدِها بآلامِ الحياةِ .

وذاتَ يومٍ جلَسَتْ (درتُ) إلى جانبِ السجانِ فى حُجرتِهِ وأخذَتْ تُحدِّقُ(٢) بنظرها إلى النافذةِ ، وتُقَلِّبُ طَرْفَهَا(٣) فى السماءِ ، فلحَظها السجانُ وقال لها :

« فِيمَ تفكِّرين يا (درِّتُ) ؟ أتفكِّرِينَ فى الحقولِ ؟ »

فقالت : « مَا الحقولُ ؟ وأين هىَ ؟ »

فأجاب السجانُ — وقد أشارَ بمفتاحٍ فى يده : إنها قريبةٌ من هنا . ألمْ يقعْ نظرُكِ عليها من قبلُ ؟

بلَى : إننى لم أرَها . هل الحقول تُفتَحُ وتُغلقُ كما يُفتح السجنُ ويُغلقُ ؟

---

(١) السياج : السور (٢) حدَّق : شدد النظر (٣) عينها

تألمَ السجانُ فى نفسه لسؤالِها هذا ؛ لأنه أحسَّ ما يُخالج[1] فؤادَها من مَرارةِ الأسْرِ . ثم قال لها : « لا يا بُنَيَّتى ، إنها لا تُغلق دائماً . »

فسألته : « هل الحقول جميلةٌ يا (بوبُ) ؟ وكان يُحبُّ أن تُناديَه باسمِهِ مُجرَّداً .

فأجاب (بوب) : وَىْ[2] ! إنها جميلةٌ جدًّا يا (درِّتُ)، وسآخذُكِ مَعِى حيثُ أخرُج ؛ لِتتمتَّعى بجمالِ الطبيعةِ ، وترَىْ بعينِكِ الأشجارَ المثمِرةَ ، والحدائقَ الغنّاء ، والمتَنَزَّهاتِ العامةَ وقد اكتسَتْ أرضُها ببساطٍ سندُسيٍّ جميلٍ ، وازَّينت بالأزهارِ التى تَبعَثُ فى الجوِّ أرِيجَها[3] المنعِشَ ، وجرَت فيها الجداولُ صافيةً رقراقةً تَحمل الحياةَ والنَّماء للنباتِ ، يقصِدُها الناس للتنزهِ واللعبِ .

درِّت : وهل الناس جميعاً يَتمتعون بمَا فى الحدائقِ والبساتينِ ؟

بوب : نعمْ يا (درتُ) . إنّ فى قدرتِكِ أن تذهَبِى إليها ، وتَأخذِى حبلَكِ وتقفِزى به هنا وهناكَ كما يَحلو لكِ .

دُرِّت : أفى الحدائقِ أطفالٌ كثيرون أستطيع اللعِبَ معهم ؟

بوب : سَتجدين كلَّ ما يَسرُّكِ ويُفرِحكِ هناكَ .

---

(١) خالج قلبي أمر : نازعني فيه فكر (٢) كلمة للتعجب (٣) رائحتها الطيبة

دُرِّت : وهل كان أَبِي يَتنزهُ فى تلك الحديقةِ ؟

السجَّان : أجابها متألماً : نعمْ كَان يتنزَّهُ فيها ، ويتمَتعُ بمناظِرها أحياناً .

دُرِّت : أهوَ أَسِفٌ الآنَ لِحرْمانهِ الحرِّيةَ فى الحياةِ ؟

السجَّان : أظُنهُ غيرَ أسِفٍ كثيرا .

دُرِّت : أليسَ السُّجناءِ أَسِفين لانقطاعِهم عن العالِمَ ، وحِرمانِهم الرياضةَ والتنزهَ ؟ أجِبْ يا (بوبُ) ! ما لى أراكَ تصمُت؟ لم يُحرِ[1] السجَّانُ جواباً ، وتنفَّسَ الصُّعَداء[2] . وللتخلُّصِ من الإجابة غيَّر موضوعَ الحديث ، ثم حملَها بينَ يديهِ ، وأخَذ يُسَلِّيها بلُعبةٍ جديدةٍ كان قد اشترَاهاَ ليقدِّمَها لها فى عيدِ الميلادِ .

صار (بوبٌ) بعدَ ذلك يأخذُ (درِّت) كلَّ يوم أحدٍ إلى الحدائقِ والمتنَزَّهاتِ فتلهو وتلعبُ ، وتقطِفُ الأزهارَ الجميلةَ ، وتنظِم منها طاقتين تقدِّمُهما لأبوَيها حينَ عَودتِها فى المَســاء إلى السجنِ .

وحينما بلَغت (درِّت) من العُمرِ ثمانيةَ أعوامٍ تُوفِّيتْ أمُّها ، فحزِن الأبُ والأطفالُ عليها حُزناً شديداً . وبفقدِها فقَدوا مَن

---

(١) لم يَدْرِ (٢) تنفساً طويلا

يُعنَى بأمورِهم ، ويهتمُّ بشئونهم ؛ فقد كانت الابنةُ (فانِى) فتاةً لا تعرفُ شيئاً ، ولا تهتَمُّ بشىء . وكَان الابنُ (إدوارُدُ) خاملاً بليداً ، لا يعملُ ، ولا يحبُّ العَملَ . ولم يكنْ لدَى الأبِ المِسكين مَن يعتمِدُ عليه سِوَى ابنتِهِ الصغيرةِ (درِّت) . ومُنذُ صِغرِها كانت تحمِلُ قلباً شفيقاً ، ورُوحاً وثَّابةً ، وعزيمةً قويةً ، وذِهناً حاضراً . فلم تلبَثْ أن راضَتْ[١] نفسَها على العَملِ ، وأخذتْ تفكِّرُ — كأمٍّ حازمةٍ — فى أبيها وأُختِها وأخيهاَ .

ولقد قاستْ كثيراً فى سبيلِ أن تتعلمَ ، ويتعلمَ أخَواها ؛ فكانتْ تُرسلُهما إلى مدرسةٍ نهاريةٍ ، وتقومُ هى بشئونِ الأسرةِ ، وتَعملُ طولَ النهارِ منفرِدةً ، فى جِدٍّ ودأْبٍ[٢] ، حتى إذا ما جَنَّ[٣] عليها الليلُ تركَت المنزلَ ، وذهبَتْ إلى مدرسةٍ ليليةٍ لتتعلمَ فيها القراءةَ والكتابةَ والحسابَ .

وحينما بلغَت الثالثةَ عشْرةَ من عُمرِها أَلْفَتْ[٤] نفسَها قد حَذَقت[٥] التدبيرَ المنزلىَّ ، واستطاعَتْ أن تقرأَ وتكتُبَ .

دخل السِّجنَ سجينٌ جديدٌ لدَينٍ كان عليه ، وسمِعَتْ (دُرت)

---

(١) عودت (٢) جد وتعب . (٣) ستر (٤) وجدت
(٥) مهرت

أنه معلمٌ للموسيقا . وكانت تجدُ فى أختها (فانى) مَيلاً لذلك الفنِّ ، فذهبَتْ إليه وقالت له :

سيِّدى ، أتسمحُ لى بالتحدُّثِ إليك ؟

السجين الجديد : نعم ، إننى مُنصتٌ[1] لكلِّ ما تقولين . ولن أبخلَ عليكِ بأيةِ معونةٍ تكونُ فى طاقتى أيتُها السيِّدةُ الصَّغيرةُ .

درِّت : شكرًا لكَ يا سيِّدى . إنى أُريدُ أن أرجوَكَ شيئًا لا لنفسى ، بل لأختىِ الكبيرةِ ، وهو أن تسمحَ بتعليمِها الموسيقا . فهل لكَ أن تُسدِىَ[2] إلينا يداً[3] لن ننساها أبدَ الدهرِ بتعليمِها ذلك الفنَّ الجميلَ ؛ علها تستطيعُ فيما بعدُ أن تكسِبَ منه ما تُعينُ به أُسرتَنا العاثرةَ[4] الجَدِّ ، ولن نبخَلَ عليكَ بما يَصِلُ إلى أيدينا من مالٍ ؟

السجين الجديد : بكلِّ سرورٍ سأقومُ بتعليمِ أختكِ من غيرِ أن أنتظرَ أىَّ أجرٍ على القيام بواجبٍ .

واظبَتْ (فانى) على دُروسها ، وأظهرَتْ براعةً ومقدِرةً ، وعُنِىَ[5] بها المدرِّسُ عِنايةً كبيرةً ، وأُعجِبَ بتَقدُّمِها فى الموسيقا

(١) ساكت ومستمع (٢) تحسن (٣) اليد : النعمة والإحسان
(٤) السيئة الحظ (٥) اهتم

يوماً بعدَ يومٍ . ولم يَنقطعْ عن الحضورِ لتعليمها حتى بعدَ أن أدَّى ما عليه من الدَّينِ ، وأُطلِقَ سَراحُه من السِّجنِ .

سُرَّتْ (درِّت) كثيرًا بتقدمِ أختِها، فَدعاها ذلك إلى أن تتعارَفَ بسيدةٍ سَجينٍ كانت تتَّخِذُ خياطةَ الملابسِ للسيدات مِهنَةً لها . ورَجتْها أن تُعلمَها . فاعتذرَت السيدةُ ؛ مُدَّعِيةً أنّ (درِّت) ضعيفةُ البِنيةِ ، صغيرةُ الجسمِ ، لاتستطيعُ أن تحتملَ آلامَ تعلُّمِ الحياكةِ.

ولـكنَّ (درت) أظهرتْ لها فى جِدٍّ ودأب[1]، وعَزمةٍ صَادقةٍ ، أنّ فى قُدرتِهَا أن تتعلمَ كلَّ شىءٍ رَغِبَتْ فى تعلمهِ ، وأنّ لَديهَا استِعداداً للفَهم إذا سمَحت السيدةُ بتعليمها .

فعارَضَتِ السَّجينةُ قائلةً : « إنكِ لا تَزالين صغيرةً ، وصغيرةً جدًّا . »

فقالت (درِّتُ) : « نعَم . أنا صغيرةٌ ، وصغيرةٌ حقًّا . » وأخذت تَبكى ، فتألمتْ لهـا السيدةُ ، وأخذتْها بينَ يَدَيها ، وعَطفتْ عليها ، ثم بدأتْ تُعلِّمُها ، فوجَدتها ذكيةً ، قويةَ المُلاحظةِ، كثيرةَ الصبرِ ، شديدةَ الرَّغبـةِ فى التعلمِ . وسُرعان ما أظهرتْ نجاحاً باهراً فى الحياكةِ والتَّطريزِ .

---

(١) دأب فى عمله : جدَّ وتعب ، وبابه قطع وخضع

اشتغلت (فانى) بالموسيقا فى إحدى دُورِ الملاهى ، واستطاعت أن تَكسِبَ عَيشَهَا بنفسها ، وعاشَتْ مع عمِّها الهرِمِ المِسكين خارجَ السِّجنِ . وحَذَقَت[١] (دُرتُ) حِرْفَةَ الخياطةِ ، وبدأت الحياةُ تَبسِمُ لتلك الأسرةِ المنكودةِ ؛ فإنّ (دُرتَ) نجحت فى عَمِلِها ، وأخذتْ تفكِّرُ فى إخراجِ أخِيها من السجنِ ، لتُنقِذَهُ من من أخلاقِ السُّجناءِ وبِيئتِهم . وبمُساعدةِ (بوب) الصديقِ القديمِ أمكنَها أن تَجِدَ له عَمَلاً يَكسِبُ منه قُوتَه ، ولكِنْ وَاأسَفاه ! كانَ كُلَّما أَلْحَقَتْهُ أُختُه بعملٍ أظهرَ من الكسَلِ والإهمالِ والتقصيرِ ما يُلجِئُ[٢] صاحبَ العملِ إلى طَردِهِ والاستغناءِ عنه . وأصبحَ عِبْئاً[٣] ثقيلاً على (دُرّتَ) الصَّغيرةِ حتى يَئِستْ من إصلاحِ حالِهِ ، فعَمِلَتْ على أن تقتَصِدَ مِقداراً من المالِ يَكْفِى سَفَرَهُ إلى (كَندا) ؛ للبحثِ عن حظِّه هناكَ . وكانَ يهاجرُ إليها الفقراءُ المُعدِمُون فيعودون منها أغنياء . ادَّخرَت[٤] القدْرَ الكافِىَ وقدَّمْته لأخيها (إدْواردَ) ، وطلَبَتْ منه المهاجرةَ ، وَزوَّدَتْه بنصائحِها الثمينة ، ووَدَّعتْه عند مغادرَتِهِ بقولها : « أستودِعك اللهَ أيها الأخُ

---

(١) مهرت (٢) يضطر (٣) العبء : الحمل . (٤) اقتصدت

العزيزُ . أرجو لكَ النجاحَ فى (كَنَدا) ، وآملُ أن تكتبَ إلينا .
ولا تنسَ أنْ تعودَ لرؤيتِنا حينما يكتُبُ لك اللهُ الفوزَ والتّوفيقَ . »

أخذَ (إدواردُ) النقودَ من شقيقته ومضى . ولكنه لم يسافرْ إلى (كندا) ، بل مكثَ فى (ليفربولَ) حتى فُقِدَتْ نقودُه ، ثم عادَ إلى (درِّتَ) المسكينةِ بعد شهرٍ ، دامِىَ القدمِ ، مُمزَّقَ الثيابِ ، رَثَّ[1] الهيئةِ فذُعِرتْ[2] أختهُ ذُعراً شديداً حينما رأته ، واستولى عليها الحزنُ والألَمُ حينما قَصَّ عليها قصّتَه ، وأخبرها بأنَّ نقودَه سُرِقَتْ منه فى (ليفربولَ) ؛ فلم يتمكّنْ من السفرِ إلى (كندا) ، واضطُرَّ إلى الاستدانةِ ، فحُكم عليه بالسجن .

فَزِعَتْ لقوله هـذا الفزعَ كُلَّه ، وَرَجَتْه ألاّ يردِّدَ كلمةَ « السِّجن » ؛ لأنها تبعثُ فى نفسِها كلَّ غَمٍّ وهَمٍّ ، وألا يُخبرَ أباه حتى لا ينفطِرَ[3] قلبه كمَداً وحُزناً ، ولا تتضاعفَ آلامُه ، وينوء تحتَ تلك الأرزاء فيخر صريعاً .

اثنتانِ وعشرونَ سنةً قضتها (درِّتُ) فى شقاءٍ دائمٍ ، وألمَ مستمرٍّ ، وهَمٍّ مُقيمٍ . ألَمْ تَبْزُغْ[4] شمسُ حياتها فى غَياهبِ[5]

(١) الرث : البالى (٢) فزعت (٣) ينقطع (٤) تطلع
(٥) الغَيهَبُ : الظلمةُ ، والليل

الظلماتِ ؟ أليْسَتْ ربيبةَ السِّجنِ ، وابنةَ طريدِ المجتمعِ ؟ ألمْ تجاهِدْ فى سبيلِ الحياةِ وهى لم تَعْدُ الثامنةَ من عُمرِها ؟ ألمْ تحمِلْ أوْصابَ[1] الحياةِ فى سبيلِ تعليمِ إخوتِها وإنقاذِ أُسرتِها ؟

« رَبَّاه ! أنقِذْنِى مما أُعانى[2]. لقد احتمَلتُ ما لمْ يَحتمِلْه أحدٌ ، وقاسَيتُ ما لم تُقاسِه فتاةٌ . لقد تَعبْتُ كثيرًا ، وشقِيتُ طويلاً . رَبَّاه ! عفوَكَ ورَحمتَك ! وإِحسانَك ورِضوانَك . »

بهذه الكلماتِ الحارَّةِ كانت تتضَرَّعُ إلى رَبهَا باكيةً صباحَ مَساء . وقد استجابَ اللهُ دُعاءها الصادرَ عن تلك النفْسِ الطاهرةِ ، والرُّوحِ البَريئةِ ، وأخذَ الدهرُ يبْتسِم لها ؛ فقد ذهبَت فى يومٍ من الأيامِ لتُلبِّىَ دَعوةَ سيدةٍ غنيَّةٍ استدْعَتها لتَخيطَ لها ثِيابَها فى بيتِها . وكان لتلك السيدةِ ابنٌ كريمُ الْخُلُقِ ، شريفُ النفْسِ ، رَضِىُّ الطَّبعِ ، كثيرُ العَطفِ على الفقراءِ والمساكين ، يُدعَى السيدَ (كلِينامَ) . عرَف قصَّةَ (دُرِّتَ) وما قاسَتْه من آلامٍ ، وما قامَت به من أعمَالٍ ، فأخذَتهُ الشفَقةُ عليها ، والرَّأفةُ بها ، فعزَمَ على أداء دَينِ أبيهَا وأخيها ، وإنقاذِها من غياهِبِ[3] السِّجنِ .

---

(١) الوصَب : المرض (٢) أقاسى (٣) ظلمات

وذاتَ يومٍ كانا عائدَينِ إلى المنزِلِ – بعدَ أن مَرَّا بالدائنِينَ لمعرفةِ مِقــدارِ الدَّينِ – فسمِعَت (دُرِّتُ) صَوتًا يُنادِيها : « أُمِّى الصغيرةَ . » فتلفَّتَت نحوَ مَصدرِ الصَّوتِ ، فرأت فتاةً تعْدُو نحوَها . وما كادَت تصلُ إليها حتى أَلْقَت بنفسِها بينَ يديْها ، وقد سَقط منها ما كان بيدِها من (البطاطس) . فعرفَتها (درِّتُ) وقالت لها بكلِّ عطفٍ وحنانٍ : مرحباً بكِ يا (ماجِى) . أين أنتِ ؟ ومالى أراكِ مُشعَّثةَ[١] الشعرِ ؟

قدَّمَتْ (درِّتُ) الفتاةَ للسيِّدِ (كلينامَ) ، وعرَّفَتْه أنها كانت حَفيدةً لجارةٍ لَها ، وأنَّ جَدَّتَها كانت تَقْسو فى مُعاملتِها وهى صغيرةٌ ، وقد أُصيبَتْ بحمَّى شَديدةٍ وهى فى العاشرةِ من عُمرِها ، فأُرسِلَتْ إلى المستشفى ، فوجدَتْ فيه من الراحةِ والعنايةِ والرِّعايةِ ما لم تألَفْه من جدَّتِها . وكثيرًا ما تناوَلَتْ فيه شرابَ اللَّيمونِ اللذيذ ، والدَّجاجَ الشهِىَّ ، والطعامَ الصِّحىَّ . فودَّتْ لو أنها تَبقَى مريضةً إلى الأبَدِ . ولكنْ لحسنِ حظِّها أو لسُوئِه بَرِئت[٢] من مَرَضِها ، وخرَجَتْ من المستشفى ، وعادت لتَلقَى من عذابِ جَدَّتِها ، وشِدَّةِ قسوتِها الأَمَرَّينِ[٣] . ولكنها كانت

(١) مُغبَرَّة (٢) سَلِمت وشُفيت (٣) الأَمَرَّان : الفقر والهرم

مُجدة كثيرةَ الصَّبرِ ، استطاعت بمثابرتها أن تَشُقَّ لنفسِها طريقاً فى الحياةِ ، وتوجِد لَها عملاً تَرْتزقُ منه .

قصَّت (درِّتُ) على السيدِ (كلينامَ) كلَّ شىءٍ عن تاريخِ (ماجى) إلّا ما كانت تُقَدِّمُه لها من معونةٍ ، وما كانت تحوطُها[1] به من عطفٍ ورِعايةٍ ، وما كانت تُساعدها به من مالٍ ، على الرَّغمِ من فقرِها وحاجتِها . لم تذكرْ له (درِّتُ) أنها هى التى قدَّمتْها لإحدى الأسرِ لتكونَ مربِّيةً لأبنائها . ولكنه فَهِم هذا كلَّه من تلقاءِ نفسه ؛ من مناداةِ (ماجى) المسكينةِ لدرِّتَ بـ « أمِّى الصغيرة » ، ومن شدةِ تعلقها بها ، ومن نَظَراتِ الإجلالِ التى كانت ترمقُ[2] بها (ماجى) أُمَّها الصغيرةَ (درِّتَ) .

وفى إحدى الليالى القارسَةِ[3] البَردِ ذهبَتْ (دُرِّتُ) ومَعَها (مَاجى) إلى بيتِ السيِّدِ (كلينام) ؛ لتُقدِّمَ له جزيلَ شكرِها ، ووَافرَ[4] ثنائِها ، لأدائهِ الدُّيونَ عن أخيها وأبيها . ولكنها ألْفَت[5] البابَ مُوصَداً[6] ، فلم تشأْ أن تقرعَهُ حتى لا تُزعِجَ من فيهِ . وعادَتْ إلى السِّجنِ فَرَأَتْه مُغْلَقاً ، ووَجَدت السَّجانَ نَائماً .

(١) تكلؤها وترعاها . (٢) تنظر (٣) الشديدة (٤) كثير
(٥) وجدت (٦) مغلقـا

فقضَت اللَّيلةَ فى الشوارعِ ، تجلسُ آونةً[1] بجانبِ بابِ السِّجنِ ، وتتَمشَّى آونةً أخرى فى الطَّريقِ . كلُّ هذا و (مَاجى) ترتعدُ من شِدَّةِ البَردِ . وكانت كلما همّت بمُوالاةِ[2] قَرْعِ الباب مَنَعَتْها (دُرِّتُ) ، وقالت لها : « ليسَ من حَقِّنا أن نوقظَ النَّائمَ من رُقادِه ، وليسَ من المرُوءةِ فى شىءٍ أن نُتعِبَ غيرَنا لنَستريحَ . »

وأخيراً انقضَتْ تلك اللَّيلةُ اللَّيلاءُ[3] — بعدَ أن طال الانتظارُ — وأتى الصباحُ ، وفُتحَ البابُ ، واستراحَتْ (مَاجى) . وعانَقَتْ (دُرِّتُ) أباها السَّجينَ ، وذكَرَتْ له ما كان من ذلكَ المُحسِنِ النَّبيلِ السيِّدِ (كلينامَ) .

خرجَ الوالدُ من السِّجنِ ، وشكرَ للسَّيدِ (كلينامَ) ذلكَ العَطفَ الكثيرَ ، وتلك المروءةَ النَّادرةَ ، ودعا اللهَ أن يقدِّرَه على رَدِّ ذلك الجَميلِ .

ابتسمَ الدهرُ ثانيةً لتلك الأسرةِ الكريمةِ ، وزالَ ذلك الشَّقاء الذى كان يُخيِّمُ عليها ، وتغيرَت الحال تغيُّراً كثيراً ، وتبدلتْ من شقاءٍ إلى سعادةٍ ، ومن سِجنٍ إلى حرِّيةٍ ، ومن فقرٍ إلى غِنًى .

---

(١) مرة (٢) متابعة (٣) ليلة ليلاء : شديدة الظُّلمة .

سبحانهُ جلَّ شأنهُ . « يُعزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء . إنَّه عَلَى كلِّ شيء قديرٌ . »

ولكن لم تنسَ (درَّت) أصدقاءها الفقراء ، ومَنْ مَدُّوا لها يَدَ المعونةِ ؛ فكانت تُحسنُ إليهم وترعاهم ، وتُقدِّم لهم كلَّ ما تستطيع من مُساعدةٍ وكان أبوها يشجِّعها على الإحسان .

شاء القَدَرُ أن يُصبِحَ السيدُ (كلينامُ) فقيراً ، وأن يَستدين فيُزَج به في السِّجن . فلم تَنسَ (درَّت) تلك اليَدَ[١] التي أسداها[٢] إلى أسرتها ، فعوَّلَتْ على إنقاذِه من السِّجن ، وإطلاقِ سَرَاحِه مهما كلَّفها ذلك . وأدَّى أبوها ما على (كلينامَ) من ديونٍ ، فأُخرِجَ من السِّجن . ومكَّنَ اللهُ والدَ (درَّتَ) من أن يَرُدَّ لَه الجميلَ . ولا يَضيع جميلٌ أينما وُضع .

وتزوَّجَ السيدُ (كلينامُ) الأمَّ الصغيرةَ (دُرِّتَ) ، وعاشَا سَعيدَيْنِ مَدَى حياتِهما ، تُرفرفُ عليهما الهناءةُ والسعادة ، يَكلؤُهما[٣] الله بعنايتِه ، ويَحفظُهما برعايته .

---

(١) النعمة (٢) قدمها . (٣) يحفظهما

القِصَّةُ السَّابِعَةُ

« تِم » الكسيحُ الصغيرُ

جرَتْ عادةُ الأُمم من قديم الزَّمانِ أن تتخذَ لها من بين أيَّامِ العامِ أعْياداً ، ينقطِعُ فيها الأفرادُ عن أعمالِهِم ، فيلبسونَ جديدَ الثيابِ ، ويتلاقَوْنَ مُتصافِينَ فَرِحينَ ، فى مظاهرِ السَّعَةِ والرَّفاهةِ[1] ، كلٌّ على قَدْرِ طَاقَتِه . ومن تلك الأعيادِ يومُ عيدِ المِيلادِ ؛ فقدْ كانَ النَّاسُ يوفِّرونَ لأنفُسِهم فيهِ سُبُلَ الراحةِ والدَّعةِ[2] ، ووسائلَ السعادة والسُّرورِ . وعلى النَّقيضِ من ذَلك السيِّدُ « سْكرُوجُ » التاجر ؛ فقدكان غَليظَ القَلْبِ ، جافِيَ الطَّبْعِ ، سيِّئَ المعاملةِ ، لا يُفكِّرُ إلاّ فى ادِّخارِ الأموالِ ، والتَّقتيرِ على نَفْسِه . فلا يَأْبَهُ[3] لشئون غيرِهِ ، ولا يَحفِلُ[4] بِما يَتمنَّوْنه من خَفضِ العيْشِ ، ورَغْدِ[5] الحياةِ . لهذا أبْغَضَ العِيدَ ، ولَمْ يَهتمَّ بِهِ ؛ إذْ عدَّهُ نوْعاً من حُبِّ الظُّهور .

---

(١) الرفاهة : السَّعة . (٢) السكون . (٣) يأبه : يكترث ، يفطن .
(٤) يبالى . (٥) واسعة طيبة

عاشَ السيِّدُ « سكُرُوجُ » عَيشاً وَضيعاً على نحو ما يعيشُ أهلُ المَتْرَبةِ والإمْلاقِ، فى حجرتين لا تنفُذُ إليهما أشعَّةُ الشمس، وتُدخِلانِ الغَمَّ عَلَى النَّفْس ، وتبعثانِ الألمَ فى الفؤادِ . عاشَ لا يَشعُرُ بفرحٍ ، ولا يُحسُّ جَذَلاً[١] ، بل كان يُبغِضُ الفرحَ، ويَمْقتُ الأعْيادَ . ولقد تسرَّب بؤسهُ وتبرُّمُه إلى كاتبهِ المِسكينِ ؛ فقَدَرَ[٢] عليهِ رزْقَه ، ولم يُعْطِهِ إلاّ نُقُوداً ضئيلةً ، لا تُناسب جهْدَهُ ونشاطَه .

حدثَ فى ليلةِ عيد الميلادِ — وقد اشتد بَرْدُها ، وكثُرَتْ ثُلوجها ، فكسَت الشوارِعَ والحدائقَ بساطاً ناصعَ البياضِ — أن سمَحَ السيِّدُ (سكُروجُ) — على كرهٍ منه — لكاتبهِ التَّعِسِ بقضاءِ يوْمِ العيدِ فى بيتهِ مع أُسْرتهِ ، فأغلَق مكتبَهُ وهو يكادُ يتَميَّزُ[٣] من شِدَّةِ الغَيْظِ . وذهَب إلى مَنزلهِ شاردَ اللُّبِّ[٤] ، ضَيِّقَ الصَّدرِ ، لوَقفِ حَركةِ العَملِ فى غَدهِ .

تناوَلَ (سكُروج) التاجرُ نَزْرًا[٥] يسيراً من طعامٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنى من جوع . وجلَس بالقُرْبِ من مَوْقِدٍ صغيرٍ فى جانبٍ من حُجرتهِ العابسةِ ، لِيُذْهِبَ عن نفسهِ قُرَّ[٦] الشِّتاء ، ثم أَوَى

(١) الجذل : الفرح . (٢) قتر (٣) يتقطع . (٤) العقل .
(٥) النزر : القليل التافه . (٦) برد .

إلى فِراشِه . وما كادَ الكَرَى[١] يُناوِئُ أجْفانه حتى تَراكمت[٢] عليه الأفكارُ من كلِّ صوْبٍ ، وتزاحمتْ فى عقْلِهِ بوَاعِثُ القَلقِ والاضْطرابِ . فقضَى ليلتهُ بينَ أحْلامٍ مُزْعِجَةٍ ، وأوْهامٍ تُقِضُّ[٣] المضاجِعَ ، وتُؤرِّقُ الأعْيُنَ .

ولْنَدَعِ الآنَ التاجرَ تائِهاً فى بحار أحلامِهِ المرَوِّعَةِ ، مُتقلبِّاً عَلَى أشْواكٍ من حسَكِ السَّعدانِ ، فَتمْنَع طرْفَه[٤] الرُّقادَ . وَلْنَعُدْ إلى الكاتِب العاثِرِ الجْدِّ ، لنرَى كيف قضى ابنُه (تِم) الصغيرُ يوْمَ العيدِ .

يُدْعَى ذلك الكاتِبُ (بُوب كْراكِت) ، وقد عاشَ مع زوجِه وأولادِه الستةِ ، ومن بينِهم (تِم) الصغيرُ . وهو طفلٌ ضعيف البِنْيةِ ، لا تقْوَى قدَماه الواهنتانِ على حَمْله ، بل لا بُدَّ له من عَصًا يَتكِئُ عليها ، فنَال عَطفَ وَالدَيهِ ومحبةَ الأُسرةِ . ومع ضَعفِهِ وقلَّةِ حيلتِهِ ، كان رقيقَ الطَّبْعِ ، جميلَ الوجْهِ ، صَبورًا على المكارِهِ ، يُحبُّ أبوَيهِ وإخْوتَهُ ، يَعطِف عليه كلُّ من رَآه ، ويَرأفُ به جميعُ من رَنا[٥] إليهِ . وكثيرًا ما كان يَحمِلُه أبوه على كَتفِه فى أوقات

---

(١) النعاس . (٢) اجتمعت . (٣) تجعلها خشنة . (٤) عينه
(٥) أدام النظر .

فراغِه، ويخرجُ به للنُّزهَةِ والرِّياضَةِ بين الحدائقِ الغَنَّاء، والبساتينِ النَّاضرةِ، والحوانيتِ الجميلةِ، وَاجداً من اللَّذَّةِ والسَّعادةِ فى إدخالِ السُّرورِ على ابنهِ ما لا يَشعُر به إلا الآباءِ الرُّحماء.

حملَ الأبُ طِفلَه الصغيرَ، وذهب به إلى الكَنيسةِ يومَ العيدِ، تاركاً زوْجتَه تُهيِّئُ طعَامَ الغَداء حتى يَحضُرا. ولمَّا انتهت أخذَت تسألُ أوْلادَها:

« ماذا حدَث لأبيكم البارِّ وشقيقِكم حتى تأخَّرا إلى تلك السَّاعة؟ إنى ما عهِدْتُ تأخِيرًا يومَ العيدِ قبْلَ الآن. »

فمَا إنْ سمعَ الأوْلَادُ كلامَهَا حتى أسْرَعوا إلى النَّافذةِ يَسْتطلعون الخبرَ، فإذا أبوهم مُقبِلٌ يتأففُ وتصطكُّ أسنانُه من شِدة البرْدِ؛ إذْ كَان يرْتدى حُلَّةً باليةً، ليْس عليها مِعطفٌ يدفَعُ عنه قَوارسَ البرْد، وثلوجَ الأمْطارِ. وقدْ حملَ على كَتِفِه أخاهُم الصغيرَ، وفى يدِه العصا الَّتى يتوكأُ عليها. فصاحُوا جَميعاً فى نَفَسٍ واحد، والبِشرُ يتلألأُ على صفحاتِ وجوهِهم: « هَا هُو ذا مُقبِلٌ يا أمَّاه! » وأسْرَعوا نحوَه لِلقائِه.

ولما قرُب ودخَل فِناءَ الدَّارِ سألَت الزَّوجُ : « كيفَ كانَ سُلوكُ « تِم » فى الكَنيسةِ يا عَزيزى ! »

« حَسَنٌ جدًّا ، على خَيْرِ ما نَرجُو وإِنى لأَظنُّه بدأ يشعُر بالقلق وضيق الصَّدْرِ لمكثِه داخِلَ البيتِ كثيرًا ؛ فقدْ أخبرنى وأنا عائِدٌ بأنهُ يَرجُو أنْ يتذكَّرَ الناسُ — الَّذِين رَأوْهُ فى الكنيسةِ كسيحًا ، لاَ يَسْتطِيعُ السيرَ على الأقدامِ — اللهَ الخالقَ الذى جعلَهُم قادِرِينَ على المشْىِ . »

فقالتْ أمُّه بصوْتٍ مُرْتَجف : « كلأَهُ(١) الله بِعينِ رِعَايتِهِ ، وبارَكَ فى قلْبه الطَّاهِرِ . »

وقال الأبُ : « إنَّ « تِم » قد تَحَسَّنَتْ صِحَّتُه ، وأصبَحَ أقوَى مِمَّا كانَ . »

أَعَدَّت الأمُّ مَائدةَ الغَدَاءِ ، فوضعَتْ فى وسَطِها إِوَزَّةً كبيرةً ، وأحضَرَتْ « بلِنْدا » إحدى بناتِها الْخُضَرَ ، وأتى « بِيتَرُ » بالْبَطاطِسِ ، ونظَّمَ الأطفالُ الآخَرون الكراسِىَّ حولَ المائدة ، ثمَّ جلسَ كلٌّ فى موضعِهِ يَطْعَمُ(٢) ، و « تِم » بجانبِ والدهِ يحوطُه بحَنانه وعنايتهِ . وقد بدَا البشرُ على

(١) حفظه . (٢) يأكل .

مُحَيَّا[١] « تِم » وهو يُرَدِّدُ عبارات التهاني : مَرْحَى . مَرْحَى .

جيء بعد ذلك بالعَصِيدةِ والبخارُ يصَّاعدُ منها ، فالْتَهَمُوها حتى آخر لُقمـةٍ فيها ، ثم صُفَّ البُرْتُقَالُ أمامهم ، فأكلوا هنيئاً وشربوا مَريئاً . ولمّا انتهَوْا من تناوُلِ الغَدَاء قال أبوهُم : « عيدٌ سعيدٌ يا أبْنَائى الأعِزَّاء ! أعادَهُ اللهُ عليكم باليُمنِ والإقبالِ . »

فقال « تِم » : « اللهُ يُسْعِدُنَا جميعاً . » وتناوَلوا أقداحَ[٢] الشَّرابِ ، فشربَ كلٌّ منهم نَخْبَ أخيه ، ثم اقْتَسَمُوا فيما بينهم نَخْبَ السيِّدِ « سكرُوجَ » ربِّ نِعْمَتِهم . وأخذوا يتجاذَبون أطْرَافَ الحديثِ ومُلَحَ الـكلامِ ، ويُغنِّى كلٌّ منهم ما يَعْرِفُ من الأغانى . وكان « تِم » عذبَ الحديثِ ، رخيمَ الصَّوْتِ ، فغنَّى أُغْنِيَّةً[٣] طريفةً حوْلَ طِفْلٍ فُقِدَ فى الثَّلج يوْمَ عيدِ الميلادِ .

هكذا قضى الـكاتب يومَ العيدِ سعيداً بين أبنائه الصغارِ ، وزوجِهِ الرَّءومِ ، قريرَ العينِ برؤْياهم والتحدُّث إليهم . فلْنَتْرُكْه حينئذٍ ترفرف عليه القناعةُ ، ولْنَعُدْ إلى « سكروجَ » التاجر ؛ لنعرف ما كان من أحلامه المزْعجةِ ليلةَ عيدِ الميلادِ .

(١) وجه . (٢) جمع قدَح وهو ما يشرب فيه . (٣) غناء .

رأى التاجرُ فى نومهِ أنّ رُوحَ العيد أرَتْه منزِلَ كاتبهِ ، فرمَقَ[١] الأطفالَ جاثِين[٢] بالقرْب من النارِ بعد الفراغِ من الطعام ، وهم يشرَبون نخبهُ ، كما سمعَ غِناءهم ، لا سيَّما أغنِيَّةَ « تِم » الرقيقة العَذْبة . وفى أحلامهِ المزعجِة تلك الليلةَ قد طافَتْ روحُ التاجرعلى كثيرمن بُيوتِ الفقراء ، فشاهدَت أرْواحاً مُتبايِنةً لمختلفِ طبقَاتِ الناسِ . وتوًّا عادتْ به ثانيةً إلى كوخ كاتبهِ الفقير « بوب » ، فوجدَ زوجَه جالسةً بجانبِ المائدةِ ، تقومُ ببعضِ الأعمالِ اليَدَويَّةِ ، والدموعُ تحدِرُ على وجْنَتيها تَنْعَى حظَّها وتقولُ : « إن كثرةَ العملِ بالإبْرة أضرتْ بعيْنَيَّ . » ورأى الأطفالَ جالسين والوجومُ[٣] مُخيِّمٌ على رءوسِهم ، والحزنُ يَعلو وجوهَهم ، والذِّلَّةُ والمسْكنة تمْلِكانِ شِغَابَ أنفسِهم . فجالَ ببصرهِ فيهم لِينظُرَ « تِم » ، فلم يَعثُرعليه بينهم ؛ إذْ ذَهب إلى فراشهِ . ثم شاهدَ كاتبَه فى حجرةِ نوْمه وقد مالَ برأسهِ كئيباً حزيناً ، كاسفَ البالِ ، يُخْفِى وجْههُ بين كَفّيه ، بجانب سريرٍ صغيرٍ توَسَّدَهُ طِفلٌ وديعٌ ، يَلبَسُ ملابِسَ بيضاء ، ترعَاهُ ملائكةُ السماء .

---

(١) نظر إليهم . (٢) جالسين . (٣) شدة الحزن .

أخذ الأبُ يبكي وقطَراتُ الدمعِ تذرِفُ[١] من مآقيه ويتفوَّه:
« طفلي الوادعَ الصغيرَ ! ولدى الهادئَ الجميلَ ! قد افتقدتُكَ ضحيةَ فقري ، ولو كنتُ ثرِيًّا[٢] لعرَضتُكَ على الطبيب . » ثم انحنَى على ابنِه ، وطبَع على وجهِه الباسمِ قُبلةَ الثاكلِ الحزينِ ، قُبلةَ الوداعِ الأخيرِ . وغادرَ الحجرةَ إلى الطبقةِ السفلى ، ليُحضِرَ بعضَ الأزهارِ المقدّسةِ التى لا تزالُ فى غرفةِ الطعامِ المتواضعة .

بعد ذلك أمسك بقبَّعتِه وخرج حزيناً قد ملَكه الأسَى ، وهو يرْنُو[٣] إلى هِراوة صغيرةٍ وُضِعت فى أحدِ أركانِ البيتِ كان ينحنى عليها « تم » الكسيحُ ، وأغلَق البابَ خلفَهُ .

رأى التاجرُ ذلك كلَّه فى حُلمه ، وهو يغِطُّ فى نوْمِه ، بل شاهدَ أكثرَ وأروَعَ ؛ من رُؤًى[٤] تتفطّرُ منها القلوبُ ، وتنْصدِعُ لها الأفئدةُ ؛ فقد أرَتْه الرُّوحُ فى رِحلتها كلَّ ما يمكنُ أن يُرَى فى بيوتِ المُعدِمين المُقِلِّين[٥] ليلةَ العيدِ .

وقد خرج التاجرُ من هذه المعركةِ الداميةِ شخصاً جديداً ، مختلفاً كلَّ الاختلافِ ؛ إذ استيقظ وقد تغيَّرَتْ حالُه ،

---

(١) تسيل (٢) غنيا (٣) ينظر إلى (٤) جمع رؤيا (٥) الفقراء

وتبدَّلتْ نَظْرتُه الأُولَى فى الحياةِ ، وأَضْحَى رجلاً آخرَ يشعرُ بما لم يشعرْ به من قبل ، ويَرى نفسه قد ابتدأتْ عهداً جديداً لم يكنْ لها بالأمْس ؛ فقَدَ أصبحَ لَدَيها شعورٌ كريمٌ ، وإنسانيةٌ عَاليةٌ ، وإحساسٌ نبيلٌ . تلك حياةُ التاجر الثانيةُ التى هبطتْ عليه من السماء ، فقال لنفسه : « لماذا أجدنى اليومَ نَشِيطا ، كقدِّيسٍ طاهرٍ ، مرحاً كتلميذِ المدرسةِ . أرجو عيداً سعيداً لكلٍّ فردٍ ، وعاماً سعيداً لجميع العالَمِ . »

وبعد برهةٍ[1] اشتَرَى ديكاً رومياً سَميناً ، لم يستطع الخادمُ حملَه ، فأرْسلَهُ فى عَجَلةٍ هديةً لمنزلِ « تِم » الكسيح .

شاطَرَ الأبُ أبناءه جذَلهم[2] يومَ العيدِ . ولما أصبَح صَباحُ اليومِ التَّالى ذهبَ إلى مكْتَبه مُتأَخِّراً بِضْعَ دقَائِقَ عن موعِده، فانْتابتْهُ[3] الهُموم ، واستَوْلى عليه الغمُّ ، وخشِيَ بَأْسَ « سكْرُوجَ » وقوارصَ كَلِمِه اللَّاذِعة . ولكِنْ ما إن وَطِئتْ قدماه أرْضَ المكتبِ ، حتَّى وجدَ سيدَه مُتَقَمِّصاً[4] شخصيةً أُخْرى ، فأَصبَح لطيفاً فى معاملتِه ، رَفيقاً فى حديثه ، قامَ إليه وقابلَهُ بسَيل من

(١) مدة من الزمان (٢) فرحهم . (٣) انتابتْه : أتتهُ مرةً بعدَ أخرى
(٤) متخذاً له ، منتحلا

الإِحْساسِ الرقيقِ ، والشُّعورِ الحَيِّ ، ووَعدَه أنَّه سيرفع راتبَه ، وسأَلَه بإِخْلاصٍ عنْ صحةِ « تِمِ » ، ولدهِ الصغيرِ . ثم تَرَكَهُ وهو يقُول : « لاَ تنسَ « يا بُوبُ » أن تُشعِلَ نارًا قويةً فى حجرتِك قَبْلَ بدء الْعَملِ ، حتى لا يضُرَّكَ البَرْدُ . »

حارَ « بوب » فى أمْرِ سيدهِ ، وانقِلابه الفُجَائىِّ ، من رقةٍ بَعْدَ غِلظةٍ ، ولينٍ بَعدَ شِدَّةٍ ، وَرَحمةٍ بَعْدَ قسْوَةٍ ، وجُودٍ بَعدَ بُخْلٍ ؛ فلم يَعْتَقِدْ ما شهِدَتْه عينُه ، وسمِعتْه أذُنُه ، ولـكنَّ الأيَّامَ حقَّقَت ذَلك . فوفَى الرَّجلُ بِوَعْدِه ، وعطَف على كاتبه ، وزادَ رَاتبَه . فانقَلَبَ حالُ أُسْرتِهِ من بُؤْسٍ وفاقةٍ ، إِلى عِزٍّ وسعادةٍ ؛ ومن فقْرٍ وحرْمانٍ ، إِلى نَعيمٍ وَيسارٍ . ولَمْ يَمتْ « تِمِ » كما كان يحلُم أَبُوه ، بل بقِىَ يتمتَّع بالحياةِ ، نَاعماً فى ظِلِّ وَالدَيْه ، سعيداً بجِوَارِ إخْوته — بَعْدَ أن أُرْسِلَ إلى الطَّبيبِ ، ففحَصَ عن الدَّاء ووَصفَ الدَّوَاء .

عادت إلىالطِّفلِ قوَّتُه، فأَضْحَىقوِىَّ البِنْيةِ، مُنْشرِحَ الصَّدْرِ، يرْتع فى بُحبوحةِ العَيْشِ الرَّغْد(١)، ويتَفَيَّأُ ظِلاَلَ الْحياةِ الهَنيئَة ،

---

(١) الواسع الطيب .

تَخفُقُ على أُسْرَته السَّعيدةِ أَجْنحَةُ الْحرِّيَةِ المُطْلَقَة بعد أن طَوَّقها الذلُّ بقيوده وأَغْلاَله رَدَحاً[١] من الزَّمن . ولَقدْ تَغيَّرَتْ حياةُ هذه الأُسرةِ فى كَنَفِ الرَّجُلِ الْجَـديدِ ؛ رَجُلِ المروءةِ والإِحسانِ السيِّد « سكرُوجَ » الَّذى أَحَبَّ « تِم » حُبًّا جَمًّا ، وتَبنَّاهُ فبادَلَهُ رسالَةَ الأُبُوَّةِ الحقَّة .

وهكذَا تَغَيَّرتْ طَبيعةُ السيِّد « سكُرُوجَ » فأَصبحَ إِنساناً كريماً ، يُحِبُّ الفُقَراء والمسَاكِينَ ، ويَعْطِفُ على الْبَائِسينَ والمُعْوزِينَ[٢] ، مُنذُ ذلك الْحلمِ المُزْعِجِ ليلَة العيدِ .

(١) رَدَحاً : طويلاً من الزَّمن .   (٢) الفقراء .

القِصَّةُ الثَّامِنَةُ

مخاطـــرة « پيب »
أو
لا يَضيعُ جميلٌ أينما وُضِع

نودىَ « فِيليبُ پيرْب » باسم « پيب » ، واشتهرَ بين أترابِهِ[١] بهذا الاسْمِ . ولم يَكن يعرِفُ من أمرِ أبيه وأمِّه وإخوتِهِ الصِّغارِ سِوى أسمائِهم التى رآها منقوشةً على لَوْحاتِ المقابرِ فى مَدْفَنِ الكنيسةِ . وقد عاشَ فى كَنفِ أُختِهِ الكُبرَى ، تحوطُه برِعايَتها ، وتُعنَى بشُئونهِ مع زوجٍ طيِّبِ القلبِ ، رقيقِ العاطفةِ ، نبيلِ الإِحْساس . وكان قَيْناً[٢] يُدْعى « جُوجَرْجَرِى » فى قريةٍ تبعدُ عن البحرِ عشرين ميلاً . وعلى الرَّغمِ من حُسنِ خُلقهِ ، ولينِ طباعِهِ كانت زوجُه غليظةَ القلبِ ، جافيةَ الطبْعِ ، تُسىءُ معاملتَه ، وتقسُو علَى أخيها .

وفى أصيلِ[٣] يومٍ اشْتَدَّ بردُه خرجَ « پيب » — ولم يتجاوز

(١) الترب بالكسر : اللِّدة ، ومن وُلد معك (٢) حدَّادا .
(٣) الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب

السابعةَ من عمْرِه — لزِيارةِ قبرِ والدَيْه وإخْوتهِ ، وأخذَ يُحاولُ تعرُّفَ تلك النقوشِ المحفورةِ على رمُوسِ[١] أُسْرتهِ ، وسرْعان ما غرَبت الشمسُ، وَأقبلَ الليلُ يمْحُو آيةَ النهارِ، فشعَر بالوَحدةِ ، واستولَى عليه الفزَعُ من رَهْبــةِ المكانِ ، فبَكى وعلا صوتُه بالنَّحيبِ[٢]، فتصدَّى له رجلٌ — لم تقَعْ عليه العينُ قبلُ من بينِ الأجداثِ[٣] — بَشِعُ المنظرِ ، مُصَفَّدٌ[٤] بالأغْلال ، يرتدى لباسَ السُّجناء . وقد لاحَتْ عليه أَمارات الشَّقاء ، وعلاماتُ البُؤسِ والهوانِ ، ترتعِدُ فرائصُه[٥] من شدَّة الزَّمْهريرِ ، وتصْطكُّ أسنانُه من قَسْوةِ القُرِّ ، وقال له بصوتٍ مُخيفٍ : « قِفْ مكانك أيها الغلامُ الصغير ، ولا ترفعْ صوتَك ، وإلَّا . . . » ثم خَطا نحوَه والشررُ يتطايرُ من عينيه ، ومِرْجَلُ الغضبِ يَغْلى فى صدرِه ، وزأَرَ بصوتٍ مُخيفٍ كأنه الرَّعدُ حينما وضعَ أصابعَه فى عُنقِه ، فصاح « پيب » خائفاً وجِلاً : « باللّه لا تقْتُلْنى يا سيِّدى ! »

فسأله الرجلُ: «أخبِرْنى ما اسمُك ؟ أسرِعْ! » فأجابهُ الصبيُّ :

---

(١) الرَّمس : تراب القبر (٢) النحيب : رفع الصوت بالبكاء
(٣) الجدَث : القبر (٤) مقيد وموثَق بالقيود (٥) الفريصة لحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرعد من الدابة

اسمى « پيب » . » فلم يتبين الرّجلُ ما قاله الصبىُّ ، وحَمْلَقَ(١) فى وجهِهِ قائلاً : « اِرْفع صوتك ! » فرفع صوتهُ والرَّوْع يملأُ فؤادَه .

فقال الرجلُ : « أين تسكنُ ؟ وفى أىِّ مكانٍ تعيشُ ؟ » فأشارَ « پيب » إلى قريةٍ تبعدُ ميلاً أوْ أكثرَ عن الكنيسةِ .

صوَّبَ(٢) الرجلُ نظرَه نحوَ القريةِ بُرهةً(٣) ولم يلبثْ أن توجَّه إليه ، وأخذ يفتِّشُ جيوبَه ، فلم يجد فيها سوى قطعة من الْخبز التقمها بِنَهَمٍ(٤) وشرَهٍ ، وأخـذ يُتمتِمُ بعباراتٍ شعرَ الصبىُّ منها أن لا مَناصَ من قتلِه ، فتضرَّع(٥) إليه أن يرحمه ويتركَه إلى حيث شاء ، فتوقَّف الرجلُ وسأله : أين أمُّك ؟ »

فأجاب «پيب» : « أمى تُوفِّيَتْ وَجُثمانُها فى هذه المقبرةِ . » وأشارَ إليها . ففكر الشقىُّ فى الهربِ وفى تركهِ . ثم وقف ونظر حوله وسأله : « أهذا أبوكَ المدفونُ بجانب أمِّك ؟ »

فقال پيب : « نعم يا سيِّدى ! » فطأطأَ الرَّجلُ رأسَه ، وقال مُتعجِّباً : « مع من تعيشُ حينئذٍ إذا خلَّيتُ سبيلَك وتركتك لتعيشَ ؟ »

---

(١) حملق : فتح عينه ونظر نظراً شديداً (٢) اتجه بنظره (٣) مدة من الزمان
(٤) النَّهَم : إفراط الشهوة فى الطعام (٥) ابتهل

پيبُ : « أعيشُ مع أختي قَرينـة الحدّاد . » فارْتسمتْ على وجْهه دَهشةٌ ، ونظرَ إلى رِجليـه المُـكبَّلتَين[١] بالأصْفَاد[٢] ، ثم قَبض على الطِّفلِ وهو يتراجعُ إلى الوراءِ فَرَقاً[٣] يحاول أن يفِرَّ منهُ ، وحملقَ[٤] فيه قائلاً : « الآن ما زلتُ أفَـكِّرُ ؛ هلْ أدعُك حيًّا أم لا ؟ أتعرفُ المِبرَدَ ؟ .

پيب : « نعم »

الرجلُ : « وهل تعرفُ الطَّعام ؟ »

پيب : « نعم »

الرجل : « يجبُ أن تُحضِرَ لى مِبْرَداً وطعَاماً . »

دارَ هذا الحديثُ وهو قابضٌ على (پيب) المسكينِ حتى كادَ يُغمى عليه، ثم قال له : « إيَّاكَ والتهاونَ فيما طلبتُ . غداً فى الصباح المُبكِّر أراكَ حامِلاً ما أردتُ. وإيَّاكَ أن تُخبرَ أحداً بشأنى أو تُعلِمَه مكانى . سَوف أتركُكَ حيًّا إذا نفَّذت رغبتى . » فوعده « پيب » بشَرفهِ أن يجيبَ رغبَتَه ، ويكتُمَ سِرَّه . حينئذٍ خلَّى الرجل سبيلَه قائلاً : « تذكرْ ما دعوتك إليه ، ولا تنسَ ما تعهَّدتَ به . اِذْهب إلى أهْلِك آمِناً تصحبك العنايةُ الإلهـيَّةُ . »

(١) المقيدتين (٢) القيود ، مفردها صَـفَـد (٣) خوفا (٤) فتح عينيه ونظر نظراً شديدا .

فحيَّاه «ييب» تحيةَ المساء، وأسرعَ فى عَدوه[١] مخافةَ أن يُغيِّرَ رأيَه فيلحَقَه ويُوقعَ به الأذى. ولكنَّ الرجلَ قال: «يكفى ذلك.» وقد سرَّح طرْفَه[٢] فى الفَضاء حين اشتد البرْدُ، وتراكم الصَّقيعُ على وَجهِ الأرض، وتمنَّى لو كان ضِفدِعةً تحتمِى بالأعشابِ، أو جُرَذاً[٣] يأوِى إلى الأحجارِ.

وصَل «ييب» إلى المنزلِ على عجَل، وصعِد فى السُّلم إلى حُجرتهِ، فوجد صِهرَه جالساً ينتظرُه، فأخبرَه بأن أختَه قد خرجتْ باحثةً عنه والعَصا فى يدِها؛ لتُعاقبَه جزاءَ تأخرِه إلى غسَق[٤] الليلِ. فوقعَ هـذا النبأُ فى نفسهِ موقعَ الألمِ، ووقفَ فى جانبٍ من الغُرفةِ مشدُوهاً[٥]، حتى أتت تُصعِّدُ زَفراتِ الغضبِ، وما إن وَقع نظرُها عليه حتى أقبلَت عليه بالعَصا تُذيقُه مرارتَها.

أعدَّت الزَّوجةُ (الشايَ)، ودَعت زوجَها وأخاها لشُربه، ثم تناولَتْ قطعةً كبيرةً من الْخُبزِ والزُّبْدِ قسَّمتها بينهُما، فانتهزَ «ييب» الفرصةَ وأخفى نصيبَه ليقدمَه للِّصِّ وَفاءً بوَعدِه، وبرًّا بعهْدِه. ظنَّ الزَّوجُ أنه قد التقم الْخُبزَ دفعةً واحدةً، فأسدى إليه

(١) جريه (٢) عينه (٣) الجُرَذ: ضرب من الفأر، والجمع جِرذان
(٤) أول ظلمة الليل. (٥) حائرا مدهوشا.

النُّصحَ قائلاً : « صغِّر اللقمةَ يا « پيب » ، ولا تُسرع فى الأكل ، وامضُغ الطَّعامَ جيِّداً ، وإلا وقعتَ فى الضَّررِ ، وتعِبتْ مَعِدتُكَ . أنت تعلمُ مغبَّةَ[1] الإسْراعِ فى الأكلِ وعدمِ المضغ جيِّداً ، كما تعرفُ مقدارَ حُبى وإخلاصى لك . لقد مَحَضتُك[2] النصيحةَ . »

فصاحت أُختُه « هل كان يبتلِعُ طعامَه ؟ »

فقال (چو) : « حينما كنتُ صغيرًا كنتُ أزْدرِد[3] الطعامَ مثلَك ازْدِراداً ، وإنك لا تزالُ أقلَّ من كثيرٍ من الأطفالِ فى الْتقامِ الطَّعام . »

فقامتِ الزَّوجُ وهى تكاد تتميزُ[4] من الغيْظِ ، ونَفسُها تغلِى غضَباً ، وقَبضَتْ على أَخيها ، وجذَبتْه من شَعرِه ، وانهالتْ عليه تَمنيفاً وتَوبيخاً . كان ذلك فى ليلةِ العِيد — وهى الليلةُ التى هَمَّ فيها « پيب » بالوفاءِ بوعدِهِ — فكان عليه أن يُحرِّكَ حَلوَى العيدِ بين الساعةِ السابعةِ والثامنةِ ، ولكنَّه وجد أَنَّ قطعةَ الْخبزِ تَحولُ بينه وبين المِضىِّ فى سبيلِه ، فخرجَ خُلسةً ، وذهب إلى حجرةِ نوْمِه مخبِّأً القِطعةَ فيها .

---

(١) عاقبة (٢) صدقتك (٣) أبتلع (٤) تتقطع

جاء ميعادُ النوْم فذهب « پيب » إلى فِراشِه ، علَّ طيفَ الكَرَى[١] يَمر بأجفانه ، ولكِنْ أنَّى له ذلك وهو مُبلبلُ الخاطر، مُشَتَّتُ الفكرِ ، كثيرُ الهواجسِ ، شاردُ اللبِّ مما عساه أن يكونَ من أمرِ نزيلِ المقبرةِ المكبَّلِ بالحديدِ . وما زال كذلك حتى طَلَعَ الفجرُ ، فانسلَّ من فِراشِه ، وغادرَه بهدوءٍ ورِفقٍ وهو يتخيَّل أن كلَّ شيءٍ بالمنزلِ يُحدِّقُ[٢] إليه بالنظرِ ويقول : « أَوْقفوا هذا اللصَّ . اسْتيقِظى يا (مِسزجو) لتَرَىْ ما يفعلُه أخوكِ . » وقبل أن يرتدَّ طرْفُه أخذ « پيب » قطعةً كبيرةً من الْخُبزِ ، وأُخرَى من الْجُبنِ ، وثالثةً من اللحمِ ، وبعْضًا من فطيرٍ محْشُوٍّ باللحم ممَّا جهَّزتْه أُختُهُ لضيوفها ، وغير ذلك ممَّا لذَّ طعْمهُ ، وطابَ مَذاقُه من طعامٍ شهىٍّ ، وشرابٍ لذيذٍ . ثم أتى بالمِبْرَدِ ، وحملَ الكُلَّ ، وسارَ فى طريقِه إلى حيثُ يَنتظرُ ذلك السَّجينُ الهاربُ .

خرج « پيب » فى الصباحِ الباكرِ ، حيثُ البردُ قارسٌ ، والطريقُ وعْرةٌ ، والجوُّ ملبدٌ بالضباب الكثيفِ ، وخيالُ الرجل لا يبرحُ فؤادَه ؛ فقد ظنَّ أن كلَّ الحيواناتِ التى مرَّ بها تنظرُ إليه ، وكانَّ لسانَ حالها يقولُ : « أين تذهبُ أيها اللصُّ الصغيرُ ؟ »

(١) النعاس (٢) يشدد النظر إليه .

سَارَ حتى اعترضَه ثور أسودُ اللونِ، مُخطَّط الإهابِ[١]، تَنمُّ نَظَراتُه عن رِيبةٍ في أمرِ الصبيِّ . فارتاعَ « پيب » وملأَ الخوفُ قلبَه، فتقدَّم إلى الثَّوْرِ قائلاً: « إنْ هذا العملَ خارجٌ عن إرادتى، ولم آخذْ ذلك لنفْسى . » فأحْنى الثَّورُ رَأْسَه، وزفَرَ من أنفِه سحاباً كالدُّخان، ثم اختفَى وهو يُحرِّكُ ذنبَه .

وصَل « پيب » إلى المَقبرةِ فوجدَ الرجلَ يَنتظرهُ على أَحَرَّ من الجمرِ ، والجوعُ كاد يذيقُهُ الموتَ ؛ فقدَّم إليه الطَّعامَ ، وما لبِثَ أن تناوَلَه بِشَرهٍ وَنَهمٍ استرعَى نظرَ « پيب » فقال : « إنِّى مسرورٌ لأَكْلِكَ بشهيَّةٍ » .

الرجل : « شكرًا لك يا بنيَّ ؛ فقد أدركتَنى بعد يَأْسٍ ، وأنقذتَنى من الموتِ . »

ولما فرغَ الرجلُ من طعامِه، تناولَ المِبردَ ، وأخذَ يبردُ أغْلالَه[٢]، ولكن « پيب » خشِيَ التَّأخرَ في العودةِ ، فأسْلمَ سَاقيْه للرِّيحِ ، وعاد أسرعَ من البرْقِ الخاطفِ .

أخذ « پيب » يُفكِّر فيما أَلمَّ به منذ الصباحِ ، تقرعُ أُذُنَيه في

(١) الجلد ما لم يدبغ (٢) قيوده .

كل لحظةٍ أسئلةُ أُخْتِه عن الفطيرِ الذى أَخَذَه ، ولكنَّها كانت فى شُغُلٍ عنه بإِعْدادِ مائدةِ الغِذاء لبعضِ الزائرين ؛ فقد هيَّأت لهم من اللحم المملَّحِ ، وبعضِ الُخضَر ، والدَّجاج السَّمينِ والعَصِيدةِ[١] اللَّذيذة — طَعاماً شَهيًّا .

تناولَ الزائرون طعامَهم والفرح يَغمُرهم ، وأَماراتُ البِشرِ تعْلو وجوهَهم . وقُبيلَ نهايةِ الطعامِ شعرَ « بيب » بأنه قد حانَ وقتُ افتضاحِ أمرِهِ ؛ فقد قالت أختُه فى رقَّةٍ ورشاقةٍ لِضُيوفها : « سأُحْضر لكم هديةً لذيذةً جميلةً هى فطيرةٌ محشُوَّةٌ باللحمِ . » فلم ينتظرْ ليسمعَ مِن أختِهِ أكثرَ من ذلك ؛ بل غادرَ المائدةَ خُفْيةً إلى البابِ ، فقابلتْه جماعةٌ من الشُّرَطِ ، خرجتْ للبحثِ عن مُجرمَينِ من الأشقياء ؛ فرَّا تحتَ جُنحِ الليل من عنَتِ[٢] السجن وقَسْوةِ الحياةِ فيه ، وانقطاعِ السجينِ عن العالَم . وقد أمسكَ أحدُهم بيده زوجاً من الأغلالِ الحديديةِ أفسدهُما هذان الشَّقيان .

وبينما كانت المُضِيفَةُ ذاهبة لتُحْضِرَ هديَّتَها الجميلةَ ، سمِعَت جلبة وضوضاء أنْسَتها ما ذهبتْ إليه ، فاتجهت شَطْرَ[٣]

(١) سميت بذلك لأنها تعصد أى تقلّب وتُلْوى
(٢) إثم ، عذاب (٣) نحو الباب .

الباب ، فإذا الشُّرَطُ واقفون مع « بِيب » ، فأسرَعَت نحوَهم وسألتهم : « ماخَطبُكم[١] ؟ » فأجابها أحدُهم : « إننا نريدُ « جُو » لإصلاحِ القَيْدينِ . » فعادت إلى ضيوفها ذاهلةً حَيْرَى[٢] ، لم تُحضرْ لهم ما وعَدتهم به .

خرج « جُو » إلى الشُّرَطِ[٣] ، فأصْلح القَيْدينِ ، وذهبَ فى صُحبتهم مع أحدِ ضُيوفهِ للبحثِ عن هذين المجرمَيْنِ ، وقد حملَ معَه « بِيب » عَلَى ظَهْرِهِ .

همَسَ « بِيب » فى أُذنِ « چو » : « إنى آملُ يا « چو » ألاَّ نجدَهُما . »

فأجاب : « إنى سأمنَحُك (شِلناً) مكافأةً إذا كانا قد قطَعا أغْلالَهما وفرَّا . »

ولكن سُرعانَ ما قبضَ عليهما الشُّرَطُ ، وكان أحدهما ذلكَ الشقِى التعِس الذى عرَفه « بِيب » . فلم يَكَد يقَع نظرُه عليه ، حتى هزَّ الطفلُ رأسَه مُحاوِلاً أن يُفهِمَه أنه لم يَقُلْ شيئاً ، ولم يَبُحْ[٤] إليهم بسرِّه ، ولكنَّ المجرمَ أخبرَ الشُّرْطىَّ بأنه يريدُ الإقرارَ بشىء قبلَ أن يقتادوه إلى السِّجن ليمنعَ الشُّبهةَ عن غيرِه ، فقال :

---

(١) ما أمركم ؟ (٢) حائرة (٣) الشُّرَطُ جمع ، مفرده شُرْطَةٌ وشُرْطِىٌّ
(٤) باحَ بسرِّه : أظهره ، وبابه قال .

« إنى فى الليلةِ الماضيةِ قد سَطوْتُ على منزلِ الحدّادِ ، فسرقتُ منه بعضَ الطعامِ . » وبيّنَ الأشياءَ التى ادّعى أنه سرَقها . والحقُّ أن الغلامَ أحضرَها له .

فسأل الشرْطىُّ : « هل فقدتَ هذه الأشياءَ أيها الحدّادُ ؟ »

قال : « نعمْ ، إن زَوْجى فقدَت ذلك ؛ فقد كانت تبحثُ عن الفَطيرةِ قبلَ مجيئِك فلم تجدْها . أليس كذلك يا « بِيب » . »

فقال المجرمُ وقد نظرَ إلى « چو » : « إذاً أنتَ الحدادُ . أنا أسِفٌ لأن أقولَ : إنى قد اضطُرِرْتُ إلى أكلِ فطيرتِك . »

فقال (چو) : « الله يعلمُ أنى مسرورٌ بأكلِكَ إياها ، وما كنْتُ أوَدُّ أن تموتَ جوعاً من أجل فَطيرةٍ أيها الرَّجلُ المسكينُ البائس . ثم اقتادَ الشُرَطُ السّجينَ ، وأعادوهُ إلى سِجنِهِ ، وحملَ « چو » « بِيب » ، ورجعَ إلى المنزلِ .

توالَت السِّنون ، وتَتابَعت الأعوامُ ، وحياةُ « بِيب » مُفعَمةٌ[1] بالحوادثِ ، مملوءةٌ بالمخاطِر لولا أن العنايةَ الإلهيَّةَ كفَلتْه حتى صارَ شابًّا يافِعاً ، فأرسلَ إليه صديقٌ مجهولٌ — وهو لا يزالُ فى ميعةِ الصِّبا[2] — نقُوداً ليُنفِقَهَا فى تعليمه ؛ كى يكونَ رَجُلاً مُثقَّفاً .

---

(١) مملوءة (٢) أول الصبا

استمرت النقودُ تردُ إليه دون أن يَعْرِفَ لها مصدراً ، أو يتبينَ لها مَوْردا . فغمرته الدهشةُ ومَن معه، وحَسِبَ أولَ الأمرِ أنها آتيةٌ من قِبَلِ سيِّدَةٍ عجوزٍ صديقةٍ ، ولكن اتَّضحَ خطأُ زعْمِهِ عند ما جاوزَ العشرين عاماً من عمرهِ ؛ فقد انجلَت الحقيقة ، وانكشفَ السِّرُّ ، فعرفَ أنَّه ذلك الرجلُ المسكينُ الذى أنْزلَ الرُّعبَ(١) بين حَنَايَا فؤادِه فى تلك اللَّيْلةِ القارس بَرْدُها ، الحالكِ سوادُها ، ليلة عيد الميلادِ .

قال «پيب» : « ذاتَ ليلةٍ شرَعتُ فى تركِ كِتابى على المكتبِ، وكانت الساعةُ الحاديةَ عشرةَ مساءً . فسمِعْتُ فجأةً وقعَ أقدامٍ على درجاتِ السُّلَّمِ ، فمرَّ بخاطِرى أنها لأختى. ولا أدرى كيف خطرَ ذلك ببالى . ثم أرْهَفْتُ(٢) أذنى ، فإذا الخطواتُ تتعثَّرُ . تذَكَّرْتُ أن نورَ السُّلمِ مُطْفَأٌ ، فأخذتُ مِصباحَ المطالعةِ ، وخرجتُ أُضِيءُ للصَّاعدِ وسطَ هـذا الهدوءِ الشامل ، وهذهِ الطَّبيعةِ الصامتةِ . وسرْعانَ ما توقَّفَ عن الصُّعودِ فسألتُ :

« أهُناك رجُلٌ على السُّلَّمِ ؟ »

فأجابَ صوتٌ فى الظَّلام : « نعم »

---

(١) الفزع ، الخوف (٢) أصغيت كل الإصغاء

پيب : « أيّةَ طبقةٍ تريد ؟ »

الرجلُ : « الطّبقةَ العليا أيها السيّدُ النأبه (پيب) .

پيب : « هذا اسمى . أَحدثَ شىءٌ ؟ »

الرجل : « كلاّ ! لم يَحدُثْ شىءٌ . »

« ابتدأ الرَّجل يُتمُّ صعودَه ، وأنا فى انتظارِه بمصباحى الضئيلِ الذى لا يَصلح إلا للقراءة . فشاهدتُ عن كثَبٍ[1] رَجلا غريباً ، يَبدو عليه التأثر لرؤيتى ، والسرورُ بلقائى .

تحرَّكتُ نحوَه ، وتحرَّكَ نَحوِى ؛ فإذا هو يَرتَدِى اللباسَ الضررىَّ ؛ كأنهُ قادِمٌ من رحلةٍ بحريةٍ . وشعرُه طويلٌ أشْهَب ، أسمرُ اللونِ من التعرُّضِ للشمسِ والهواء . يُناهِزُ[2] عمرُه الستين ، تَلوح عليه سِيما[3] الرُّجولةِ ، ودلائلُ القوةِ . ارْتقى السُّلَّم ، ومدَّ يدَه يصافحُنى بشغَفٍ زائدٍ ، وتلهُّفٍ كثيرٍ . فعجبت لأمْرِه ، واستوْلى علىَّ الدهَشُ[4] مع شىء من الخوفِ والقلَقِ . سألتـهُ : « ماذا تريدُ يا سيِّدى ؟ »

فأجاب بعد تفكيرٍ ورَويّةٍ : « سوفَ أخبرُك يا بُنىَّ بعدُ . »

پيب : « أتريدُ أن تمكثَ معنا الليلةَ ؟ »

---

(١) قُرب (٢) يقارب ، يدانى (٣) علامة (٤) التحير

الرجل : « نعم . »

كان فى سؤالى شىء يدلُّ على النفورِ والفَزع ؛ فقد استأتُ من شدةِ تعلقهِ بِى وأنا لا أعرفهُ . ولكنى قُدْتهُ إلى حجرتى ، ووضَعتُ المِصْباحَ على المكتبِ ، وطلبتُ منه أن يشرحَ لى حالَهُ .

أخذ يُجيلُ(١) الطَّرْفَ قليلاً حولَه وهو متعجِّبٌ ، فتملَّكتهُ حيرةٌ خالطَها السرورُ . ولم أكنْ أقلَّ منهُ استغرابًا . ثم خلعَ مِعطَفه وقُبَّعتهُ ، فبدَا أصْلَعَ الرأسِ ، مُسترسِلَ الشعرِ من الجوانبِ . ولم يُلَبِّ طَلِبَتى ، بل شرَعَ يَمُدُّ يديْه إلىَّ ، فصِحْتُ مَذعورًا — وقد ظَننتُ أنهُ مَخبولٌ : « ماذا تقصدُ ؟ »

فأشارَ الرجل بالصَّمتِ ، ومَسحَ رأسهُ بيدهِ اليمنى ، وتكلَّم بصوتٍ مُتَهدِّجٍ(٢) يغلِب عليه التأثر : « إنَّ من الخطإِ أن تُحدِّثَ إنسانًا قطع مَرْحلةً طويلةً فى سفرٍ شاقٍّ بتلك اللَّهْجةِ التى تدل على سرعةٍ فى الْحكم . وبُعدٍ عن الأَناةِ والتَّريُّثِ . ولكنْ لا لَوْمَ عليكَ ولا علىَّ . فاصبرْ يا بُنَىَّ . سأُخبرُك بعد ثوانٍ معدودةٍ عما تريدُ . »

جلس الرجلُ على كرْسىٍّ وُضعَ أمامَ الموْقدِ ، وغطَّى جَبهتَه بيَديْه السَّمراوينِ فنظرتُ إليه نظرةَ المُتعرِّفِ له ، ولكن لم أسْتطع مَعرفتَه . ثم قالَ وهو يُديرُ البَصرَ يَمْنةً ويَسْرةً :

(١) يُدير (٢) متهدج : متقطع فى ارتعاش .

« لا أحدَ قريبٌ منا . أليس كذلك ؟ »

فقلت : « لِمَ أتيتَ أيُّها الغريبُ إليَّ في ذلك الوقتِ المُتأخِّرِ من الليلِ ؟ فأومأَ إليَّ بنظرةِ حبٍّ وحنانٍ ، وقال :

« إني مسرورٌ بلقائك ورؤيتك شابًّا مُثقفاً . لا تتسرَّعْ في الاستياءِ منِّي والحُكمِ عليَّ ، وإلاَّ أسِفتَ كثيراً فيما بعدُ على ما حدَثَ منكَ . »

فازْدَادَ عندي الأمرُ غموضاً ، وتعقَّدت في ذِهني مُشكلةُ ذلك الرجلِ الغريب . وأخيراً لجأتُ إلى الماضي البعيدِ أستوحِيهِ مَا غابَ عنِّي ، وأستنبئهُ عِلْمَ مَا لم أعلمْ . وتصفَّحْتُ سِجلَّ طُفولَتِي ؛ علِّي أجِدُ فيهِ ما يكونُ عوناً لي على تعرُّفهِ . ثم رَدَدْتُ طرْفي إليه ، فعرفتُ فيه صورةَ الرَّجل المسكينِ الذي وقفتُ أمامهُ وَجْهاً لوجْهٍ عند مَدفنِ الكنيسةِ منذ سنواتٍ كثيرةٍ . ولكنَّ تواردَ الأيامِ وتَعاقُبَ الحادِثاتِ غيَّرَتْ سِحْنَتَه ، فلم أتثبَّتْ من حَقيقتهِ .

تركَ الرجلُ مَجْلِسَه ، وأخذ يَذْرعُ[1] أرضَ الحجرةِ ذَهَاباً وجيئَة ، وهو ينظرُ إليَّ ، وقد أخرجَ من جيبِهِ مِبْرَداً ليُرِيَني إيَّاهُ . ثم أخذ مِنديلاً وضَعهُ على رقبَتِهِ ، ولفَّهُ حَولَ رأسِه ، فلم ألبَثْ أن تيقَّنتُهُ ، وتحققتُ صورتَه .

(١) يقيس ، يسير .

أقبلَ الرَّجلُ إليَّ وقد قمتُ من مَكاني ، وتناولَ يَدَيَّ بلهفةٍ وشَوْق ، ورفعهُمَا إلى شفتيْهِ ، وقبَّلهما ، ثم قال :

« لقد أسديتَ(١) إليَّ من الجميل وأنتَ طفلٌ ما يُسديه النُّبلاء . إنَّكَ نبيلٌ . يا « بيب » . فلا زلتُ أذكرُ ما قدَّمْتَه إليَّ يومَ العيدِ عند المقبرةِ ، وسأذكره ما حَييتُ . » .

ثم أخبَرني بأنَّه هو الذي أرسلَ النقودَ لأتعلَّمَ فأُصْبح رجلاً مُهذباً ، أديباً مُثقَّفاً ؛ فقد أخذَ على نفسهِ عهْداً ومَوْثقاً منذ أن الْتَقى بي عند المقبرةِ أن يتولَّى تَرْبيتي ، والقيامَ بشئُوني إذا قُدِّرَ لهُ الخروجُ من السِّجنِ . فلما تحقَّقتْ أُمنيَّتُه ، سافرَ إلى (أستراليا). وهُناكَ صادفَه حسنُ الحظِّ فكانَ من الأغنياء . واستمرَّ يحدِّثني :

« لقد تبنَّيتُك يا « بيبُ » ؛ فأنا أبوكَ الثَّاني ، بلْ أنْتَ أجدرُ بالبُنُوَّةِ من أيِّ ابنٍ آخرَ . وقد ادَّخرتُ لك الكثيرَ من المالِ ، وحفِظْتُه لكَ حينما كنتُ أسكنُ في كوخٍ صغيرٍ منعزلٍ عن العالَم ، وأقُومُ برعْيِ الغنمِ . وقد نسيتُ كلَّ شيءٍ حتى وُجوهَ الرِّجالِ والنساءِ إلا وجْهَك الباسمَ ، وشخصَك الوادعَ الذي ملأَ المكانَ أُنْسًا ، وبدَّد ما فيه من وَحْشَةٍ . »

وكنتُ أذكرُكَ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، وأتخيَّلُ صُورتَك

(١) قدَّمتَ ، أحسنتَ

وأنتَ تنظُرُ إلىَّ عندَ مقبرةِ الكنيسةِ فى تلك اللَّيلةِ السَّوْداء . وكلَّما ذكرتك أكَّدْتُ عُرَا العهْدِ ، وأحكَمْتُ الصِّلةَ ، حتى هيَّأ اللهُ لى من أمْرِى رَشَدا[1] ؛ إذْ أخْرَجنى من السِّجن ، ومهَّد لى سُبلَ الوفاء . وهأنذا أراكَ الآنَ وقد حققَ اللهُ فيك أَمَلى . وهذه آثارُ نعمةِ اللهِ عليك ؛ حيثُ هَيَّأ لكَ ما تستحقُّ من النجاحِ والتوفيقِ .

« أىْ بُنىَّ ! إنّك ستُصبِحُ « لُورْداً من اللُّوردات » ؛ بل أَتَفاءَلُ بأنّك ستفوقُهم وتَعْلُو عليهم . »

ثم استطرَدَ فى حديثِهِ ، وقد أخـذ الساعةَ من جَيبى ، ونظرَ إلى الخاتَمِ فى إصْبَعى وقال: « اُنظُرْ إلى تلك الساعةِ الذَّهبيةِ الجميلةِ ! اُنظُرْ إلى الخاتَمِ الماسِيِّ الذى يتلألأ فى يَدِكَ ! إنّه خاتَمُ رَجلٍ نبيلٍ. اُنظرْ إلى ما لديْكَ من أثاثٍ فاخِرٍ ، إنّه بلغَ غايةَ الْجَوْدةِ والإِحْـكام ، وحُسْنِ التَّنْسِيق والإتقانِ . »

ثم أخذَ ينظرُ فى نواحِى الغُرفةِ وقال :

« اُنظرْ إلى تلك المـكتبةِ الجميلةِ وقد جمعتَ من الكتُبِ الثَّمينةِ ، والمجلَّاتِ النفيسةِ ما سأَلتَذُّ بسماعِهِ . وسأَسْعَدُ بالْجلوسِ إلى

---

(١) هداية

جانبِك تُتَرجِم لى ما حَوَتْه من قِصَصٍ رائعةٍ، وأدبٍ جمّ، وعِلمٍ غزيرٍ. وسأكونُ فخوراً بك، شائدًا بذِكرِك فى كُلِّ نادٍ.»

قال «پيب»: ثم عاد المحسنُ ثانيةً يَطْبَعُ على يَدىَّ قُبلةَ العطفِ والحنان الأبوىِّ.

هكذَا يُؤَثِّر المعروفُ فى أفئدةِ ذوى النفُوسِ النبيلةِ؛ فلقد كان جَميلُ «پيب» سبباً فى نُمُوِّ عاطفةِ الرَّحمةِ فى قلْبِ ذلك الرجلِ السجين، فصارَ وَالِداً شفيقاً، وأباً كريماً، يُنفِقُ على «پيب» من مَالِهِ، ويُرَبِّيه بما مَلَكَتْ يمينُه، حتى أَضْحَى سعيداً جزاءً وِفاقاً لما قدَّمَتْ يداه.

عرَف «پيب» ذلك فلم يسَعْهُ إلا الشكرُ؛ وأَقبلَ على يَديْه يُشْبِعُهُمَا لَثماً وتَقبيلاً؛ تقديراً لوفائِه، واعترافاً بفَضْلِهِ. ثم قدَّمَ المَعذِرَةَ على ما أبداهُ من نفورٍ فى سُؤاله، واشتِباهٍ فى أمْرِهِ. وعاشَ يَنْعَمُ بعطفِه وحُبِّه، والرجلُ قريرُ العيْنِ بإخلاصِه وحُسْنِ رعايتِه للجميل. ولا ريبَ؛ فالإنسانُ عبدُ الإحْسانِ، وأسيرُ المعروفِ.

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تستَعبدْ قُلُوبَهُمُ
فَطَالَمَا استَعْبَدَ الإنسانَ إحْسَانُ

القِصَّةُ التَّاسِعَةُ

« نِلْ » الصغيرة وجدها

أو

الضَّحية

هُناكَ في ضاحيةٍ من ضواحي لندن حيث أرْخَى السُّكونُ ستائرَه، وتجلَّى الهدوء ينفُثُ في القلوبِ شيئاً من عُرْسِ الطبيعةِ وبهْجَتِها، عاشت « نِل » الصغيرةُ مع جَدِّها — وقد بلغَ من الكِبَرِ عِتيًّا — في منزلٍ عتيقٍ طوَّحَ الزَّمانُ بجدرانِه، فأصبح خاوياً على عُرُشِهِ(١) . عاش الجدُّ وحفيدتُه بعيدَيْنِ عن العالَمِ ؛ فقد آثرا حياةَ العزْلةِ والانفِرادِ . ولكنَّ رُوحَ الفتاةِ الطاهرة وجدَت السعادةَ في كل شيء ، فملَت البَسَماتُ ثغرَها ، وبدَتْ للناظرِ مرِحَةً كأنها في هناءةٍ ، وهي في ذلك المنزلِ الرهيب(٢) الذي يَرُوعُ(٣) قلبَ من يأوِي إليه ، أو يَثْوِي(٤) به .

أحبَّتْ « نِل » جدَّها حُبًّا جَمًّا ، وقدَّسَتْهُ التقديسَ كُلَّه ،

---

(١) جمع عريش وهو بيت أو خيمة من خشب وثُمام . (٢) المفزع المخيف

(٣) راعه فارتاع : أي أفزعه ففزِع . (٤) يقيم به

ولم يكن الجدُّ أقلَّ منها تعلُّقاً وشغَفاً ؛ فكثيرًا ما يَرْنُو(١) إليها بنظَراتِ العطفِ والحَنان حتى فى أشَدِّ ساعاتِ أَلَمِه ، ولَحَظاتِ يَأسه ، رغْمَ ما يُقاسيه من حُزْنٍ دفينٍ كاد يَقضِى عليه ، ويُزهِقُ رُوحَه ؛ لكثرةِ التفكيرِ فى أمرِ قوتِه ، وما يُخَبِّئه المستقبلُ لتلك الطفلةِ المسكينة إذا نعاه الدهرُ ، واخْترَمتهُ(٢) يدُ المنيَّة . فاشتدَّ به الهمُّ ، وأصبح كثيرَ الغَمِّ . لم يَطُفْ بجفْنيهِ طائفُ الكَرى(٣) ، ولم يذُقْ للنومِ طعما ، ولم يجِد للرَّاحةِ سبيلاً ، إلَّا فى تلك الفَترَاتِ القصيرةِ التى كان يقضيها فى نَوْمٍ متقطِّعٍ فى أثناءِ النهارِ على كرسيٍّ حطَّمهُ البلَى بجانبِ الفتاةِ وهىَ جاثيةٌ(٤) أمامَه تحاوِل أن تتبيَّنَ من أساريرِ وجهه المتجعِّدةِ أسبابَ شُرودِ عقلِه ، وبَلبَلةِ(٥) أفكارِه . وعبثاً ما أرادتْه ؛ فقد كان أمْرُ الشيخِ غامضاً ، ودون الوُصول إليه خَرْطُ(٦) القتَاد .

تواتَرت الأيَّامُ وتتابَعت الليَالى ، والجدُّ يَزْدادُ شحوبُه ، وتَضْعُف قُواه يوماً بعدَ يومٍ ، حتى صارَ هيكلاً مُخيفاً ، صَرَعتْه الهمومُ

(١) رنا إليها : أدام النظر (٢) قطعته واستأصلته (٣) الكرَى : النعاس
(٤) جالسة (٥) اضطراب أفكاره ، وشدة همه
(٦) قال فى المختار : وفى المثل : دونه خرْط القتاد . خرْط الورق حتّه ، وهو أن يقبض على أعلاه ثم يمر يده عليه إلى أسفله . والقَتادُ شجر له شوك .

وشدائدُ الأَسى ، وانشغَالُ البَالِ ، وطَحنتْه طَحْنَ الرَّحَى بِثُفالِهَا(١) .
ازدادَ ألمُ الفتاةِ ، وكادَ قلبُهَا يَنْفطِرُ من هوْلِ ما تراهُ ، وقسوةِ ما رمَتْها به السِّنون والأيامُ فى أملِ حياتِها ، وعتَادِ مُسْتقبلِها .
ولم تَجِدْ « نِل » مناصاً من أن تَمْتثِلَ للقضاءِ المبرَمِ ، والقـدَرِ المحتومِ ، فصبَّرَتْ نفسَها ، وسَكنَتْ إلى بَلْوَاها .

لم يعُدْ ذلك الجَدُّ يحتمِلُ أكثرَ مما احتملَ ، فاستولتْ عليه الحُمَّى ، ورقدَ يهذِى فاقدَ الإحْساسِ والشعورِ عِدَّةَ أسابيعَ ، عرفت « نِلْ » خِلالَها أمرًا خطيرًا أظْلم حياتَها أكثرَ مما كانت ، وأوشكَ أن يُطفِئَ بَصيصَ الأملِ الذى كان يلمعُ لها بين ثَنايا الدَّهْرِ ؛ فإِن المنْزِلَ الصغيرَ الذى جمعَ بين قلبَيْهما ، وأَوَتْ إليه رُوحاهُما ، قد أصبَح مِلكاً لغَيرهما مَغبةً(٢) لإسْرافِ جَدِّها فيما لا يُفيدُ . فتجسَّم أمامها شَبَحُ الفقرِ المروِّعِ(٣) ، واكْفَهرَّ فى وجْهِهَا الزَّمان ، وَتقاذَفتْها عَظائمُ المتْرَبةِ(٤) والضِّيق . غيرَ أنَّ من عادَةِ الدَّهْرِ أن يُحْلِيَ ويُمِرَّ ؛ فقد عَادَت إلى الرَّجُل بعضُ قُواه ، وأَبَلَّ(٥) من مرضِهِ ، رَغمَ ما أصابَ عقْلَهُ من ضَعْفٍ

(١) ثفال . بكسر الثاء وضمها : الحجر الأسفل من الرحى .
(٢) نتيجة وعاقبة . (٣) المخيف (٤) الفقر . (٥) نجا وشفى .

أقعَدَه عن التَّفكير ، ولم يبعِدْه عن جَلساتِه مع حَفيدتِه ساعاتٍ طويلةً يُبادلها العطْف ، فيَعْبَثُ بأناملِها آنًا ، ويُرَبِّتُ[١] على شَعْرِها آنًا آخرَ ، ويُقبِّلُها من جَبينِها ، فيرَى الدُّموعَ تَسَّاقَط من عيْنَيْها حُنُوًّا إليه ، فتأخذُه الحَيْرَةُ ، ويشتَدُّ به العَجَبُ .

ولم تكدْ « نِل » تَهنأُ بتلك البَارقَةِ ، وتستَرِدُّ قليلًا من ذلك الأملِ المحطَّمِ حتى آنَ الوقتُ الذى يجبُ أنْ يُغادرَا فيه المنزل . ولم يكن الشيْخُ قد اتخذَ العُدَّةَ ، ولم يهيِّئْ السبيلَ لذلك ؛ فقد كانَ يَشْغَل ذِهْنَه فِكْرةٌ خفيَّةٌ مُبهمةٌ لا تقفُ عند حدٍّ ، ولا تنتهى إلى غايةٍ ، جَرَّ أذْيالَها إليه حفيدتُه الوَحِدَةُ المحتاجةُ إلى المعونةِ ؛ فجعلَتْه حائرًا مُشرَّدَ اللُّبِّ ، ذاهلَ الفؤاد ، وألْهتْهُ عن البحثِ عن بيتٍ آخرَ يقيهما نَفَحاتِ البرْدِ ، وسَبَرَاتِ[٢] الشتاء . ويلتجئانِ إليه آناءَ الليل وأطرافَ النهار . وذات ليلةٍ بينما كان فى جلْسةٍ هادئَةٍ مع حفيدتِه يداعبها[٣] كعَادتِه ، لمحتْ على مُحيَّاه[٤] أثَرَ تغيرٍ فُجائىٍّ أرادتْ أن تعرفَ سِرَّهُ ، فبَادَرَتْهُ بالكلام ، ولكنه أشارَ إليها بالسكون قائلا :

(١) التربيتُ : ضرب اليد على جنب الطفل قليلا لينام .
(٢) السَّبْرَة : الغداة الباردة . (٣) يمازحها (٤) وجهه .

« لِنتكلَّمْ بصوتٍ خافتٍ يا « نِل » ؛ فلوْ عرفَ الناسُ مَقْصِدَنَا لرَمَوْنى بالجنون ، وأخذوكِ مِنى . إنَّنا لنْ نمكثَ هنا أكثرَ من يومِنا هذا . وسنسافرُ غداً على أقْدَامِنَا بين الحقولِ والغاباتِ ، وَاضِعَين نفْسَينا أمامَ قضاءِ اللهِ وقدَرِه يا عزيزتى ! سنُغادِرُ هذا المكانَ الموحِشَ ، وتلكَ المناظرَ المُفزعةَ إلى حيث تَخْفُقُ علينا أعلامُ الحرِّيةِ ، وألويَةُ السَّعادةِ ، كما تخفُقُ فوْقَ هاماتِ الطيور ، بين أزْهارِ الرِّياضِ ، وأفانينِ الدَّوْحِ (١) . »

وما كادَ الشيخُ ينتهى من حديثِه حتى تحرَّكت الفتاة فى مَجْلِسِها ، واشْتدَّتْ ضرَباتُ قلبِها ، وما لَبِثَتْ أن عادتْ إلى هدوئِهَا ، وامتلأتْ إيماناً وثِقَةً باللهِ ، فلَمْ تفكِّرْ فى آلامِ الرِّحْلاتِ مِنْ تَعسُّرِ الزَّادِ ، وبرودةِ الجوِّ ، وكثرةِ المطر ، بل هيَّأَ لها الوَهْمُ أنّ فى وُسْعِها التَّغلبَ على تِلك الصِّعَابِ ما دامَ ظِلُّهُما لا يَفترِقُ .

هجَع السكونُ وانقطعت الأصوات . واطْمأَنت الأطْيَارُ إلى أوْكَارِها . وفى وسطِ ذلك السكونِ المُخيفِ أخذَا يتجاذَبان أطرافَ الحديثِ بين أمَلٍ باسِمٍ ، ويَأسٍ مُحطِّمٍ . فلمَّا تبيَّن لهما الخيط الأبيضُ

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة ، والجمع دَوح .

من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ ، انْسَلاّ من المنزل يتلمَّسَانِ الطريق وَسطَ هذا الظلامِ الدَّامسِ ، وفى غسَقِ اللَّيلِ الداجى [١] . ولم يَلبثَا إلا قليلاً حتى وقفَا حائرَين . فابتَدرت [٢] الطفلةُ جدَّها متسائلةً :

« أىَّ طريقٍ نَسلكُ يا جَدِّى ؟ »

نظر الشيخُ إلى حفيدتهِ وأماراتُ الاضطرابِ والحيرةِ باديةٌ على وَجههِ ، ولهيبُ اليأسِ بينَ جوانحهِ يَضطرمُ ، ثم هَزَّ رأسَه هِزَّةَ اليائسِ المتحيِّرِ الذى لا يَدرِى إلى أيّةِ جهةٍ يقصدُ ، وأى طريقٍ يَخترقُ . وليس ذلك منه بعجيبٍ ؛ فقدْ أصبحَ مَشدوهَ [٣] العقل ، حائرَ الفكرِ ، فاقدَ الجَنانِ [٤] ، عيِيَّ اللسانِ ، لا يَستطيع هدْياً ولا إرشاداً .

حينئذٍ شعَرت الفتاةُ بعِبْءٍ [٥] ثقيلٍ أُلقِيَ على كاهِلِها ، وعرَفتْ لأوّلِ وهْلَةٍ أنها ستكون منذُ ذلك الحينِ القائدةَ المرشِدَةَ . فوضعت يَدَها فى يدهِ ، وخرجَا من المدينةِ والناسُ نِيَامٌ ، لا يَدريان أيْنَ يَذهبان . وأخذَا يَسْلُكانِ شوارعَ طويلةً خيَّمَ عليها السكونُ ، وانتشرَ فى رِحابها الهدوءُ ، فآثرَت الصَّمْتَ البليغَ . وسارا يَهديهما

---

(١) المظلم (٢) ابتدرت : عاجلت (٣) شُدِهِ الرجلُ : دُهِش . وقال أبو زيد : شُدهَ الرجلُ : شُغِلَ لا غير (٤) العقل (٥) حمل

نورُ الصباحِ المبكرِ ، إلى أنْ خرجت الشمسُ من كِناسِها[١] ، تملأُ بأشِعَّتِها المسجَديةِ الدنيا حَياةً وسَناً[٢] . وامتلأت الطُّرقاتُ بالغَادِينَ والرَّائحينَ . ظَلاّ سائِرَيْنِ آمنَيْن حتى قَضَيا سحابةَ نهارِهما . وما كادَ المَساءُ يُقبل بظَلامِه الحالكِ ، حتى ألْقَيا عصاَ التَّسْيَار[٣] فى ضاحيةٍ من ضواحى لَنْدنَ ، فقضيا تلك الليلةَ فى حجرةٍ استأجرَاها فى كوخٍ صغيرٍ .

وفى اليوْمِ التَّالِى استأنفا سَيْرَهما قبل أن تَطْلُعَ عليهما الشمس . وما زالاَ سائرَيْنِ حتى أنهكهما المشىُ ، وأضْناهُما الجهدُ[٤] ، وأثَّرتْ فِيهما مَشقّةُ السَّفَرِ . فأوَيا إلى ظِلّ شجرَةٍ وَارفةٍ يَتفَيَّآن[٥] فى ظِلاَلِها ، ويقضِيان فى كَنَفِها وقْتَ الظّهيرةِ ، ويَتّقِيان أشعةَ الشمس . وبعْدَ أن استَجْمعَا نشاطَهما ، أخذا طريقَهما إلى إحْدى المدنِ ليقضِيَا فيها لَيلتَهما .

وَبينما هُما سَائِرانِ تَقَابلاَ مع اثنينِ من المسافرِينَ أمِنا إليهما ، واطمَأنَّا إلى جانِبِهما ، فاسْتمرَّا فى رُفقتِهما يوْمينِ مرُّوا خلالهَا

(١) مِن مُخْتبَئِها (٢) السَّنا : الضوء (٣) السير (٤) الجهد : المشقة .
(٥) يتفيآن فى فيئها : يستظِلان فى ظلها .

ببعضِ المدنِ والقُرَى حتى وصَلوا جميعاً إلى مكانِ السِّباقِ مع رفيقَينِ جديدَيْنِ من الشُّبان .

وقدْ رأَتْ « نِل » فيهم قَسوةَ المعاملةِ ، وغرابةَ الحالِ ، ولكنها لمستْ بين جُنوبهم قلوباً تَمتلِئُ شفَقةً وتفيضُ حناناً .

وفى ضوْضاءِ السِّباقِ سنَحت لها الفُرصةُ لِكسْبِ ما تَقتاتُ به هِىَ وجَدُّها ؛ فحاولَت بيْعَ بعضِ الأشياءِ للنَّظَّارةِ[1] . وكم كانَتْ تَوَدُّ السفرَ فى حماية هؤلاءِ الشُّبانِ لولا أنها شعَرت بسوء طَوِيَّتهم وَخُبْثِ دَخِيلتِهمْ ، وما تُكِنُّه نفوسُهم من الخيانةِ لهما ؛ فقد اشْتبهوا فيهما ، وهمُّوا بإبلاغِ أمْرِهما إلى الشُّرْطىِّ ليرجِعا إلى حيثُ كانَا .

أطلقَتْ « نِل » عِنانَ الفِكر والتَّأمُّل ، وسبحَت فى بِحار الخيالِ ، فاهْتدت إلى الحقيقةِ ، وأيقَنت أنَّ أمْرَ الجَدِّ لوْ عُرِفَ لانْتهى به الطَّوافُ إلى مستشفى المعتوهين . فيحرَمُ نورَ الشمس ورؤيةَ السماءِ ، وتَفقدُ ما كانت تحسُّهُ من لَذَّةٍ وغِبْطةٍ وهىَ بجوار جدِّها، يَتبادَلانِ العطفَ والموَدَّةَ ، ويَرْتَشفانِ كئوسَ الصفاءِ والحياةِ والإخلاصِ ، فأَخذت تبحَثُ عن مَخْرَجٍ من أَعْيُنِ الرُّقَباءِ لِتقطعَ

(١) النَّظارة : القوم ينظرون إلى الشىء .

حَبائلَ أهل الشَّرِّ ، وتردَّ كيدَهم حتى تهيأ لها ، فوضَعت يدها في يدِ جَدِّها ، وسارَا لا يَلْويان على شيء . فوصلا إلى قرية صغيرةٍ ، ورآهُما مدرسٌ بها ، طيِّبُ القلبِ ، سهلُ الْخُلُقِ ، حسَنُ المعاملةِ . فرقَّ لحالهما ، وعطَف عليهما ، وهو مُعجَبٌ بعذوبةِ « نِل » المسكينةِ ، وكمالِ طبْعها . ورَحَّبَ بضِيافتهما ثلاثةَ أيَّامٍ لَقِيَا فيها من ضُروبِ الكَرَم ما أنساهُما مَشاقَّ السَّفرِ ، ووَيلاتِ الاغْتِراب ، وعذابَ النُّزوحِ عن الدِّيارِ .

ولما أذَّن مُؤَذِّنُ الرَّحيلِ ودَّعهُما مدرسُ القَرْيةِ ، وسارَا في طريقٍ ريفيَّةٍ جميلةٍ قد أسْبلَتْ عليها الطبيعةُ ثِيَاباً مُوَشَّاةً[1] من جلالِها القُدْسيِّ ، وافْتَنَّتْ يدُ الخالقِ في تنسيقِ أشجارها الفَيْنانَةِ[2] . فأوَت إليها العَنادلُ والأطْيارُ ، ووَجدَت فيها مرْتعاً خصيباً . وانْطَلقت صادحةً[3] شادِيةً ، تترَنَّمُ بجمالِ الطبيعةِ ، مُرَدِّدَةً آياتِ الشكرِ والحَمْدِ لخالق السمواتِ ، ومُبدعِ الكائناتِ . لفَتتْ « نِل » وجَدَّها هذهِ المناظرُ الرَّائعةُ ، وأنِسا بتَغْريدِ الطُّيورِ ،

(١) مرقومة منقوشة . (٢) الكثيرة الأغصان . (٣) صدَح الرجل والطائر : رفع صوته بغِناء .

وتَناوُحِ[1] الأفنانِ ، فاطمأنَّ قلباهما ، وعاوَدهما السُّرورُ ، ووَدَّا لو بَقيَا فى تلك الطريق مُدَّةَ سَفرِهما . ولكنْ أنَّى لهما ذلك ، وقد وَصلَ بهما السَّيْرُ إلى طريقٍ مُتعَرِّجةٍ كثيرةِ الالتواء ، وَعْرَةٍ مقْفِرةٍ لم يَجِدا فيها سُبُلَ الراحةِ والسرورِ؟ فتسرَّبَ إليهما اليأسُ ، وَدبَّ فى أعْضائِهما دَبيبُ التعَبِ ، فسارا بِبُطءٍ حتى المساء . وصلا إلى هَوْدج فى جانبٍ من الطَّريق ، على شَكلِ منزلٍ صغيرٍ جميلٍ ، أُقيم أساسُه على عَجلاتٍ ، وقد جَلست عند بابهِ سيدةٌ بَدينةٌ ، أمامها مائدةٌ صغيرةٌ ، بِمَشُوشٍ أبيضَ ، تشْربُ قدحاً من (الشاى) وهىَ تتفَيأُ[2] فى ظلِّ السعادة ، مُتسربلةً لباسَ الهَيبةِ والوَقارِ ، تحسِبُ[3] أنها تتناوَلُه على مَوائد الملوكِ وأرْبابِ التيجانِ .

أَرادت « نِل » أن تتقدَّمَ إليها ، ولكنَّ جلالَها عقدَ لسانَ الفتاةِ أن ينطِقَ ، وألْجمَ ثغرَها أن يفوهَ ، ولكنها بعدَ ترَدُّدٍ وإقْدامٍ تجشَّمَتْ مشَقةَ السُّؤالِ فاقترَبتْ منها ، وسألَتها عن المسافةِ إلى أقربِ بلدةٍ يذهبان إليها ، ويَرْكَنان إلى الرَّاحةِ فيها . فأَخبرتها بأنها ثمانيةُ أميالٍ ، ونظرَتْ إليها نَظْرةً ألمَّتْ فيها بحالهما ، وما أصابهما من نَصَبِ[4] الهجرةِ ، وعَناءِ[5] الرَّحيلِ . فلم تكتفِ

(١) تقابل (٢) تستظل (٣) تظن (٤) تعب (٥) مشقة

بإعطائهما (الشايَ) ، بل دعتهُما إلى الإقامةِ معها الليلةَ رأفة بهما ، وإشْفاقًا عليهما ، فقبِلا الدعوةَ شاكِرَين .

كانت صاحبةُ الهَودجِ واسمُها السيدةُ « جارْلِى » تُدِيرُ مَعرِضًا للشَّمْعِ ، فطلَبت إلى الفتاةِ أن تقومَ بتقديمِ الصُّورِ إلى زائرى المَعرِضِ ؛ لِما ظَنَّتهُ فيها من حُسنِ الخُلُق ، ورقَّةِ الشِّيَمِ ، وعُذوبةِ اللسانِ ، وجمالِ الطبعِ ، وَوَعدَتها بأنْ تُمِدَّها بما يكفُلُ لها ولجدِّها حياةً رَغْدًا مُطمئنةً . فقبِلت الفتاةُ ، وأثنَتْ على حُسنِ رِعايتِها .
وهكذا قُدِّرَ لها أن تعيدَ سيرتَها الأُولى ؛ إذ نَعِمَت بالسعادةِ مع جَدِّها الهرم فى ظلِّ تلك السيدةِ البارَّةِ الرحيمةِ .

دار الزمانُ دوْرتَه ، وعاد الجدُّ إلى سالفِ أيَّامِه من بؤسٍ وشقاءٍ ؛ فقد خرج ذاتَ ليلةٍ مع حفيدتِه ، وضرَبا فيما حولَ المدينةِ من رياضٍ جميلةٍ ، وحقولٍ زاهرةٍ ، ومُروجٍ خضراءَ ، يُمَتِّعان النفْسَ بجمالِ الطبيعةِ الأخَّاذةِ ، ويستعيدان ذِكرَى الماضى ، وما صارَا فيه من نعيمٍ ورَفاهةٍ[1] . وبيناهُما فى أحلامِهما إذ عَصَفَتْ بهما ريحٌ شديدةٌ أنْستهُما آمالَهُما ، وبدَّدَتْ سُحُبَ هناءتِهما ، فألجأتهما[2] إلى حانةٍ صغيرةٍ أخذَا مكانَهما فى ناحيةٍ منها حتى

(١) سعَة (٢) اضطرتهما

تزولَ العاصفةُ ، وتهدأ الطبيعة الثائرةُ . ولكن شاء القدَرُ أن تقعَ المسكينة نَهبًا للشقاء مرّةً أخرى ؛ فقد حانَتْ من الشيخ التفاتة فوقعَ نظرهُ على جماعةٍ من الأشرارِ يلهُون ، فَدنا منهم يرقُبُ حركاتِهم فى اهتمامٍ ، فعاوَدَه الحنينُ إلى اللهوِ واللعِبِ ، وسرَت بين جوانحِه ذِكْرياتُ الماضى ، وتطَلَّعتْ نفسُه إلى مشاركتِهم . ولكن كيف السبيلُ إلى إشباعِ هذه الرغبَةِ الجامحةِ التى انتهت به إلى هذا المَصير المؤلِم ، وجعَلَتْه جوّابَ آفاق ؟ وأنّى له بالمال الذى يدفعُه ثمنًا لهذا اللّعِب الآثمِ الذى طالما أظلمَ الحياةَ فى وجوهِ السُّعداء ؟ ما كان لهذا الشّيخ الفانى بعد أن شعَر بشىء من العافيةِ والسّعادَةِ بفضلِ حفيدتِه البائسةِ « نِل » إلا أن يَهدِمَ صَرْحَ سعادتِها الجديدةِ ، وأن يَظهرَ شيطانًا مَريداً يسُرُّه أن يُشْقِيَ غيرَه ؛ فقد استولَى على حافظَةِ النقودِ التى لحفيدتِه ، وفيها كلُّ ما تَملِكُ من حُطامِ الدنيا . فتضرّعَتْ إليه أن يَرْحمَ ضَعفَها ، ويكُفَّ عما شرَعَ فيه . ولكنّ حُمّى اللّعِبِ قد لَعِبَتْ بعقلِه الغَافِل ، وأفقدتْه رُشدَه ، فضربَ بقولِها عرضَ الحائِط ، وتقدّمَ إلى الجماعةِ شَرِهًا فى اللّعِب كأنَّه يريدُ أن يُعوِّضَ ما فاتَه . ولمّا لم تجِد الفتاة

سبيلاً إلى إقناعِه جلست حزينةَ القلْبِ ، باكيةَ العَينِ ، ذاهِلةَ الفؤادِ ، تُفَضِّلُ أن يَهبطَ[١] عليه مَلَكُ الموتِ فيَقبض رُوحَه ، عن أن تراه متهالكا على اللهوِ الذى كان سبباً فى ضياعِ منزلِهِ وسوءِ حالِه .

انقضى الليلُ إلا أقلَّه ولم ينتهِ اللَّعِب ، فلم تجدْ « نل » مناصاً من المَبيتِ فى تلك الحانةِ ، فارتمت على كُرسيِّها خائرةَ القُوَى . أخذ الكَرَى[٢] بمعاقِدِ أجفانها ، فرأتْ شبحاً[٣] فى المنامِ سَطا على كيسِ نقودِها ، فسلَبَ ما فيهِ بيدٍ مُرتعشةٍ ونظرٍ حائرٍ ، يرقُبُها حيناً ، ويُصْغِى حيناً آخر ؛ خوفاً من أن تستيقظ . ولكنَّها استيقظت من نوْمِها مُنْزَعِجَةً ، وهبَّتْ من مَرْقَدِها مذعورةً ، فوقعت عيناها على جَدِّها وهو يسترقُ الخُطْوَ ويسرِقُ الدَّراهِمَ .

هكذا قُدِّرَ للفتاةِ أن تُودِّعَ أيامَ الصَّفْوِ والهناءةِ والسعادةِ ، وأن تستقبلَ نُذُرَ الشقاء ؛ فقد أصبحَ من المتعذِّرِ أن يُقلِعَ الشيخُ عن طُغيانه ، وزادَهُ توسُّلُ فتاتهِ تهافُتاً على اللَّهو ، فانقلبَ عطفهُ على حفيدته غِلْظَةً وخشونةً ، وأصبحتْ وداعتُه شراسةً ، ولينُه فَظَاظَةً . واشْتَدَّ فى طلبِ النقودِ منها ليُطفِئَ غُلَّتَهُ ، ويُرْوِىَ ظمأَهُ ، ولكن

(١) ينزل (٢) النعاس (٣) شخصاً

ما العَمَلُ ، وهى لا تملكُ سِوى راتبِها الضئيلِ الذى تتقاضاهُ من السيدةِ « جَارْلى » ؟ ولما لم تُسعِفهُ بالمالِ الكافِى لإشباعِ نَهْمته عوّل على سرقةِ السيدةِ « جارْلى » التى أوتْهُما بعد ضلالهما فى بَيْدَاء الفقرِ المُدقع ، وصَحْراء الذُّلِّ والفاقةِ ، وأحسَنت إليهما بعدَ ما حَلَّ بهما من ألوانِ العذابِ ، وألَمِ السفرِ والاغترابِ .

قلَبَ الدهرُ لـ « سِنل » ظَهرَ المِجَن ، وبدَّلها من نَعيمِهِ بُؤساً ، ومن سعادته شقاء ؛ ففى الليلةِ التى همَّ فيها الشيخُ الأثيمُ بسرقةِ رَبَّةِ نعمتهِ ، أخذت الفتاةُ يدَ جَدِّها قبل أن يُقدِمَ على جريمتهِ ، وتركتْ تلك البلْدَةَ تحتَ جُنحِ الظّلامِ رابطةَ الجأش، غيرَ محتاجةٍ إلى نَصيحةٍ أو مُساعدةٍ ، مُخْتَرِقَةً حاراتِ القَرية وأزقَتَها ، ترْتعِدُ من شدَّةِ البَرْدِ ، وقد توالَتْ عليها الهمومُ من كلِّ جانبٍ ، وتراءت على صفحَةِ ذِهْنِها المـكْدودِ ذكرياتُ الماضى التَّعِسَةُ ، وتصرُّفاتُ الدهْرِ القاسيةُ . فلمْ تَرَ بُدًّا من تَسليمِ نَفْسِها للإلٰه القادرِ يُصَرِّفها أنّى شَاء . فاقتضَتْ عِنايةُ البارئِ أن يَبْدَأا رِحْلَةً أقسَى من الأُولى ذَاقَا فيها من أَلْوانِ الآلامِ ما ناءتْ عن حَمْلِهِ الجبالُ ؛ فقد نَامَا تلك الليلةَ فى الخَلاء يتوسَّدانِ الثرَى[1] ، ويلتَحِفانِ بالسَّماء .

(١) التراب

وفى الصَّباحِ الباكرِ عرَضَ عليْهما بعضُ المارِّين أَخْذَهُما على مَرْكَباتِهِم ، فلقِيَتْ (نِل) مِنهم عَطفاً وإشْفاقاً ، ولـكنَّهم كانوا كثيرِى الشَّغَبِ والمشاجرةِ فيما بينهُم . فوجَفَ[1] قلبُ الفتاةِ ، وملأَ الرَّوْعُ[2] فُؤَادَها . وبينا هُمْ فى طريقِهم إذْ تَغَيَّرت الحالُ، واكْفَهرَّ وجْهُ الـكونِ ، فأمطرتْهم السماءُ مَطرًا هَتُونًا[3] ، واستمرَّت تَهْمِى[4] ويَنْدَفِعُ وَدْقُها[5] حتى وصَلوا إلى مدينةٍ كبيرةٍ بعْد أن جَهَدُوا . فأخَذَتْ « نِل » وجدُّها يجوسَانِ خِلالَ الدِّيار ، وجيوبهُما خاليةُ الوفاضِ ، وليْسَ معَهما شَرْوَى نقيرٍ يحفَظ رَمَقَهما[6] . فتفرَّسا أَوْجُهَ المارَّةِ علَّهُما يجدانِ من بينِهم من يَرِقُّ لضَعْفِهما فيُكرِمُ وِفادَتَهُما . ولـكنْ لم يُغْنِ البحثُ فَتيلاً ، فافْتَرَشا البَسيطةَ ، وقَضَيَا على تلك الحالِ يومَيْن ، لمْ يَحصُلا فيهما على قُوتٍ سِوَى رغيفٍ تقاسماهُ . ولما جاءَ اليومُ الثالثُ — وقد بلغَ الضَّعفُ بالفتاةِ مَبْلغَهُ، وأنهكَها المرضُ، ولم تُظْهرْ شِكايةً ولا أَلَمًا — صَمَّمَتْ فى الرَّحيلِ من تلك المدينةِ الصَّاخبةِ إلى الرِّيفِ الهادئِ تَنْشُدُ أمْناً وقراراً ، وتأمُل خَفْضَ العيْش ، ورفاهةَ الحياةِ ،

---

(١) اضطرب (٢) الخوف والفزع (٣) هتَنَ المطرُ : قطرَ
(٤) تسيل (٥) مطرها (٦) الرَّمق: بقية الحياة

فكابدَتْ هى وجدُها مَشاَقَّ السفرِ . وفى الطَّريقِ لاحَ لها عن بُعْدٍ شَبَحُ مُسافرٍ يسيرُ أمامَها ، فأحياها شعاعُ الأمَلِ ، وتقدَّمَتْ تَسْتَحِثُّ السَّيرَ لِتأْنسَ به ، ولكنْ كيفَ الوصولُ وهى مُتَهدِّمةُ القُوَى ؟ فلم تَلبَثْ أن هوَتْ على وَجْهِهَا تَئِنُّ وتصرُخُ بصوتٍ خافِتٍ ، أَثكَلَتْهُ حادِثاتُ الزَّمانِ ، ونَكَبَتْهُ النَّائباتُ ، وقَصَمَتْهُ الأَرْزَاء ؛ فقد كانت تَجِدُّ فى السَّيْرِ على الطَّوَى[1] أيَّاماً ، وتُغالبُ البُؤْسَ والْبَلاء حتى سقَطَتْ خائِرَةَ القُوَّةِ ، مُقَطَّعةَ القَلْبِ .

سمعَ المسافرُ أنينَها ، فهرْوَلَ[2] إليها لإنقاذِها ، فإذا هى فاقدةُ الوَعيِ ، فأشفَق عليها ، وحملَها بلِينٍ ورفْقٍ إلى فُنْدقٍ صغيرٍ قريبٍ منهما ، حيثُ وُضعَت بعنَايةٍ فى الفِراشِ . استَشار فى أمرِها الطَّبيبَ ، فكتَبَ لها الدَّواء ، ووَعدَه الشِّفاء . وسُرعانَ ما عادَ إلى « نِل » رُشْدُها ، فوقعَ نظرُها لأوَّلِ وَهْلةٍ على ذلكم الشخصِ الذى كان سببَ بقائها ؛ فإذا هو المدرِّسُ صاحبُ الأيدِى البيضاء عليها من قبلُ ، كان فى طريقِه إلى منزلِه الجديدِ .

أبلَّت[3] « نِل » من مرضِها ، وعاوَدَها مرَحُها وسُرورُها ، فنصحَ

(١) الجوع (٢) أسرعَ (٣) شفيت

لها المدرِّسُ بمُرافقته إلى القَريةِ التى نُقل إليها ، وأخبرَها بأنه سَيبْذُل قُصارَى جُهدِه فى البحثِ عن عَمَلٍ يكسِبانِ منه قوتَهُما ، فمَالا إليه ، وجَنَحا إلى مَشُورتِه . وأقامَا فى تلك القَريةِ الرِّيفيَّةِ هادِئَينِ مطمئِنَّينِ . وكثيرًا ما كانت « نِل » تَذهب خُلسةً إلى الكنيسةِ ، وتجلسُ بين الصُّوَرِ والتماثيلِ المنحوتةِ على القُبورِ ، تفكِّرُ فى أيامِ الصيفِ ، وجمَالِ الربيعِ ، وتغريدِ الطُّيورِ ، ممَّا تَنتعِشُ به الحياةُ ، ويملأ النُّفوسَ بَهجةً ورَوعةً . ولكنَّ وجودَها بين أحضانِ الرُّموس[1] ، وما قاسَتهُ فى حياتِها من ضُروبِ الشَّقاء وألوانِ العذابِ — أيقظا فى رُوحِها حبَّ الدَّارِ الباقيةِ ، وحبَّبَا إليها النُّزوعَ عن الحياةِ الفانيةِ ، حيث ترفرفُ عليها ملائِكةُ الرَّحمةِ ، ورُسُلُ السلامِ .

غالَت « نل » فى أفكارِها وهَواجِسِها ، وأخذَت تسترْجِعُ أيامَ بؤسِها وصَبرِها على الشَّدائدِ ، فما زادَها ذلك إلا وَهْنًا[2] على وَهْن ، فبدأ نَجمُ حياتِها يَأفُل ، وأخذَت زَهرتُها تَذبُل ، حتى وَافاهَا القَدرُ المحتومُ . فلبَّت نِداء ربِّهَا غيرَ أسفةٍ على حياتِها ، وذهبَتْ ضحيَّةَ جَدِّها ، ودُفنَت فى مقابرِ الكنيسةِ التى كانت

(١) القبور (٢) الوهن : الضعف

تجلِسُ إليها مُستسلِمةً لخواطرِها المُؤلِمةِ. فحزِنَ الجدُّ حُزناً شديداً ؛ فقد فارقَه قبَسُ الأمَلِ الذى استضاء به ، ومَن كانت له عَوناً فى المِحَنِ ، وهادِياً وقتَ البلاءِ . فأقامَ على قبرِها جاثِياً على رُكبتَيهِ ، يندُبُ حظَّهُ وسوءَ مَصيرِه ، وأمامَهُ قُبَّعةٌ لها من القَشِّ ، وبجانبه السَّلَّةُ التى كانت تحمِلُها — وعيناه تقطُر دمًا — ينتظرُ أوبَتَها[١] فلا تعودُ . فمَلَّ الحياةَ ، وأبغَضَ كلَّ شيءٍ فى الوُجودِ ، ووَدَّ من صميمِ فؤادِه أن يودِّعَ العالَمَ ، فيلحَق بمَنْ بذَلَت حياتَها رَغبةً فى إسعادِه .

بقِيَ الجدُّ على تلك الحالِ ينعَى[٢] حفيدته ، وقدَماهُ تُسرعان الخُطْوَ إلى هَاويةِ القبرِ ، ورُوحُهُ يُناجِيها مَلَكُ الموتِ من أبوابِ السماءِ ، حتى فاضَتْ مُستَسلِمةً إلى خالقِها . فوُسِّدَ الثَّرى[٣] بجوارِ فتاته ، تُظِلُّهُما سَماءُ قبرٍ واحدٍ ، يرتَشفان رحيقَ الحياةِ الخالدةِ ، بعد ما جرَعا أقداحَ المذلَّةِ والهوانِ ، بين أحضانِ الحياةِ الزَّائلةِ .

﴿ انتهى والحمد لله ﴾

---

(١) رجوعها (٢) النَّعى : خبر الموت
(٣) الثري : التراب

فهرست

مطبعة المعـارف ١/٢٠٥٠/٣/١٩٣٩

